الأثر المشهور عن الإمام مالك
رحمه الله
في صفة الاستواء

دراسة تحليلية

بقلم

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.

يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حَقّ تقاتِهِ ولا تمُوتنّ إلا وأنتم مُسْلِمُونَ .

يأيّها الناسُ اتقُوا ربّكمُ الذى خَلقكم مِن نفْسٍ واحِدَةٍ وخَلقَ مِنْها زَوْجَها وبَثّ مِنْهُما رِجالا كثِيراً ونِساءً واتقُوا الله الذى تسَاءَلُونَ بِهِ والأرْحامَ إنّ الله كان عَليْكمْ رَقِيباً .

يَأيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اتقُوا الله وقُولُوا قوْلا سَدِيداً يُصْلِحْ لكمْ أعْمالكمْ ويَغْفِرْ لكمْ ذنُوبَكمْ ومَن يُطِعِ الله ورَسُولهُ فَقدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً .

أما بعد، فلا ريب فى عِظم فضل وكبر شرف العلم بأسماء الله وصفاته الواردة فى كتابه وسنة رسوله وفهمها فهماً صحيحاً سليماً بعيداً عن تحريفات المحرّفين وتأويلات الجاهلين؛ إذ إنّ شرف العلم تابعٌ لشرف معلومه، وما من ريب أنّ أجَلّ معلوم وأعظمه وأكبره هو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين ، وقيّوم السموات والأرضين، الملك الحقّ المبين، الموصوف بالكمال كله، المنزّه عن كلّ عيب ونقص، وعن كلّ تمثيل وتشبيه فى كماله ذَالِكمْ الله رَبِّى عَليْهِ توَكلْتُ وَإِليْهِ أنِيبُ فَاطِرُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ جَعَلَ لكمْ مِنْ أنفُسِكمْ أزْوَاجًا وَمِنَ الأنْعَامِ أزْوَاجًا يَذْرَؤُكمْ فِيهِ ليْسَ كمِثلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السّمِيعُ البَصِيرُ (1) .

ولا ريب أنّ العلم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجَلُّ العلوم وأفضلها وأشرفها، ونسبة ذلك إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات، والعلم به -سبحانه- هو أصل كلّ علم ، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته ، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به، فالعلم به -سبحانه- عنوان سعادة العبد فى الدنيا والآخرة،

---

(1) سورة الشورى، الآيتان: (10،11).

والجهل به أصل شقاوته في الدنيا والآخرة، ومن عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل ربّه فهو لما سواه أجهل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(1)، وقد دلت هذه الآية على معنى شريف عظيم، وهو أنّ من نسيَ ربّه أنساه ذاته ونفسَه فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسى ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده فصار معطّلاً مهملاً(2).

ولهذا فإنّ العناية بفهم هذا العلم وضبطه وعدم الغلط فيه أمر متأكد على كلّ مسلم، وقد كان أئمّة المسلمين، الصحابة ومن تبعهم بإحسان على نهجٍ واحدٍ في هذا العلم وعلى طريقة واحدة، ليس بينهم في ذلك نزاع ولا خلاف، ((بل كلهم [بحمد الله] على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمةً واحدةً من أوّلهم إلى آخرهم ، لم يسوموها تأويلاً، ولم يحرّفوها عن موضعها تبديلاً، ولم يُبدوا لشيء منها إبطالاً، ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، ولم يقل أحدٌ منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها ، بل تلقّوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلها أمراً واحداً، وأجرَوْها على سنن واحد، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء و البدع حيث جعلوا القرآن عِضين، وأقرّوا ببعضها وأنكروا بعضَها من غير فُرقان مبين))(3).

بل زاد المعطِّلة على ذلك فجعلوا جحد الصفات وتعطيل الربّ عنها توحيداً، وجعلوا إثباتها لله تشبيهاً وتجسيماً وتركيباً، فسمّوا الباطل باسم الحق ترغيباً فيه، وزخرفاً ينفقونه به، وسمّوا الحقّ باسم الباطل تنفيراً عنه، والناس أكثرهم مع ظاهر السكّة، ليس لهم نقد النقّاد(4).

ولا يأمن جانب الغلط في هذا الباب الخطير من لا يتعرّف على نهج السلف ويسلك طريقتهم، فهي طريقة سالمة مأمونة مشتملة على العلم والحكمة، وكلا

---

(1) سورة الحشر، الآية: (19).
(2) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيّم (ص:86).
(3) إعلام الموقعين (49/1).
(4) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (26،27/1).

امهم فى التوحيد وغيره قليلٌ كثيرُ البركة[1]، فهم لا يتكلفون ، بل يعظِّمون النصوص، ويعرفون لها حرمتها، ويقفون عندها، ولا يتجاوزونها برأى أو عقل أو وَجْدٍ أو غير ذلك.

فهم بحقّ الأئمةّ العدول والشهود الأثبات ، ولا يزال بحمد الله فى كلّ زمان بقايا منهم ((يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحيون بكتاب الله الموتى، ويبصِّرون بنور الله أهلَ العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍّ تائهٍ قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن عباد الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عِقال الفتنة، فهم مختلفون فى الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله، وفى الله، وفى كتاب الله بغير علم، يتكلّمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهّال الناس بما يشبّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلّين))[2].

ولهذا فإنّ دراسة آثار هؤلاء وأقوالهم المنقولة عنهم فى نصر السنة وتقرير التوحيد والردّ على أهل الأهواء يُعدّ من أنفع ما يكون لطالب العلم، للتمييز بين الحقّ والباطل، والسنة والبدعة، والهدى والضلال؛ لأنّ هؤلاء الأ ئمة قد مضوا فى معتقدهم على ما كان عليه رسول الله وصحابته من بعده، فهم بنبيّهم محمد مقتدون، وعلى منهاجه سالكون، ولطريقته مقتفون، وعن الأهواء والبدع المضلة معرضون، وعلى الصراط المستقيم و المحجّة البيضاء سائرون، يوصى بذلك أولهم آخرَهم، ويقتدى اللاحقُ بِ السابق ؛ ولهذا ((لو طالعتَ جميع كتبهم المصنّفة من أوّلهم إلى آخرهم، قديمهم وحديثهم -مع اختلاف بلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم فى الديار، وسكون كلّ واحد منهم قطراً من الأقطار- وجدتهم فى بيان الاعتقاد على

(1) انظر: مدارج السالكين (139/1)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص19).
(2) مقتبس من مقدّمة كتاب الردّ على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل.

وتيرة واحدة ونمطٍ واحد ، يجرون فيه على طريقة واحدة، لا يحيدون عنها، ولا يميلون فيها، قولهم فى ذلك واحد، ونقلهم واحد، لا ترى بينهم اختلافاً، ولا تفرّقاً فى شىء ما وإن قلّ، بل لو جمعتَ جميعَ ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنّه جاء من قلب واحد ، وجرى على لسان واحد))(1)، والسبب فى ذلك هو لزوم الجميع سنة النبى ، وبُعدُهم عن الأهواء والبدع، فهم كما قال الأوزاعى -رحمه الله-: ((ندور مع السنة حيث دارت))(2)، فهذا شأنهم وديدنُهم، يدورون مع السنة حيث دارت نفياً أو إثباتاً، فلا يثبتون إلا ّ ما ثبت فى الكتاب والسنة، ولا ينفون إلا ّ ما نفى فى الكتاب والسنة، لا يتجاوزون القرآن والحديث.

وهؤلاء الأئمة لم يكفّوا عن الخوض فيما خاض فيه من سواهم لعجز منهم عن ذلك أو لضعف وعدم قدرة بل الأمر كما قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: ((... فإنّ السابقين عن علمٍ وقفوا، وببصر نافذ كفّوا ، وكانوا هم أقوى على البحث ولـم يبحثوا))(3). ومن كان على نهج هؤلاء فهو فى طريق آمنة وسبيل سالمة، قال محمد بن سيرين -رحمه الله-: ((كانوا يقولون: إذا كان الرجل على الأثر فهو على الطريق))(4).

ولما كان الأمر بهذه المثابة وعلى هذا القدر من الأهمية أحببت أن أقدّم دراسة لأحد الآثار المرويّة عن السلف الصالح -رحمهم الله- فى تقرير التوحيد وردّ البدع والأهواء؛ ليكون –إن شاء الله- أنموذجاً للتدليل على عِظم فائدة العناية بآثار السلف وعظم ما يحصله من عُنىَ بذلك من فوائد وثمار ومنافع.

ولهذا نشطت فى إعداد هذه الدراسة للأثر المشهور عن الإمام مالك -رحمه الله- عند ما جاءه رجل وقال له: يا أبا عبد الله الرّحْمَنُ عَلَى

(1) الحجة للتيمى (224،225/2)، وهو من كلام أبى المظفر السمعانى.
(2) رواه اللالكائى فى شرح الاعتقاد (64/1).
(3) رواه ابن بطة فى الإبانة (321/1).
(4) رواه ابن بطة فى الإبانة (357/1).

العَرْش اسْتَوَى كيف استوى؟، فتأثّر مالك –رحمه الله- من هذه المسألة الشنيعة وعلاه الرحضاء [أى العَرَق]، وقال فى إجابته لهذا السائل: ((الا ستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة))، وأمر بالسائل أن يُخرج من مجلسه، وهو أثر عظيمُ النفع جليلُ الفائدة.

ويمكن أن أحدِّد أهمّ الدوافع التى شجّعت لتقديم هذه الدراسة لهذا الأ ثر خاصة فى النقاط التالية:

أوّلا ً: أنّ هذا الأثر قد تلقاه الناس بالقبول ، فليس فى أهل السنة و الجماعة من ينكره ، كما يذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-(1)، بل إنّ أهل العلم قد ائتمّو به واستجودوه واستحسنوه(2).

ثانياً: أنه من أنبل جواب وقع فى هذه المسألة وأشدّه استيعاباً ؛ لأ نّ فيه نبذ التكييف وإثبات الاستواء المعلوم فى اللغة على وجه يليق بالله (3).

ثالثاً: أنّ قوله هذا ليس خاصّاً بصفة الاستواء، بل هو بمثابة القاعدة التى يمكن أن تقال فى جميع الصفات.

رابعاً: محاولة أهل البدع فى القديم والحديث تبديل معناه وتحريف مراده بطرق متكلفة وسبل مختلفة.

خامساً: محاولة أحد جهّال المعاصرين التشكيك فى ثبوته والطعن فى أسانيده.

سادساً: التنبيه إلى أنّ بعض أتباع الأئمة فى الفروع لم يوَفّقوا إلى العناية بمذهب أئمّتهم فى الأصول، ولهذا ترى فى بعض من يتعصّبون إلى مذهب الإمام مالك -رحمه الله- فى الفروع من يخالفه فى أصول الدين، ويفارقه فى أساس المعتقد بسبب غلبة الأهواء وانتشار البدع.

(1) مجموع الفتاوى (309/13).
(2) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (520/5).
(3) انظر: مجموع الفتاوى (520/5).

إلى غير ذلك من الأسباب، وقد جعلت هذه الدراسة بعنوان:

((الأثر المشهور عن الإمام مالك -رحمه الله- في صفة الاستواء، دراسة تحليلية))

أما الهدف من هذه الدراسة فهى إعطاء هذا الأثر مكانته اللائقة به واستخراج الدروس والقواعد العلمية المستفادة منه، والردّ على تحريفات المناوئين، وتشكيكات المحرّفين.

وقسمته إلى تمهيد وأربعة فصول وخاتمة على النحو التالى:

التمهيد، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ترجمة موجزة للإمام مالك بن أنس -رحمه الله-.

المبحث الثانى: فى ذِكر معتقد أهل السنة والجماعة فى صفة الاستواء بإيجاز.

المبحث الثالث: فى بيان أهمية القواعد وعِظم نفعها فى معرفة صفات البارى.

الفصل الأول: فى تخريج هذا الأثر، وبيان ثبوته، وذكر الشواهد عليه من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تخريج الأثر، وبيان ثبوته عن الإمام مالك -رحمه الله-.

المبحث الثانى: ذكر الشواهد عليه من الكتاب والسنة.

المبحث الثالث: ذكر نظائر هذا الأثر ممّا جاء عن السلف الصالح.

المبحث الرابع: ذكر كلام أهل العلم فى التنويه بهذا الأثر ، وتأكيدهم على أهميّته، وجعله قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات.

الفصل الثانى: فى ذكر معنى هذا الأثر، وبيان مدلوله وما يُستفاد منه من ضوابط فى توحيد الأسماء والصفات، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: فى معنى قوله: ((الاستواء غير مجهول)) والضوابط المستفادة منه.

المبحث الثانى: فى معنى قوله: ((الكيف غير معقول)) والضوابط

المستفادة منه.

المبحث الثالث: فى معنى قوله: ((الإيمان به واجب)) والضوابط المستفادة منه.

المبحث الرابع: فى معنى قوله: ((السؤال عنه بدعة)) والضوابط المستفادة منه.

الفصل الثالث: فى إبطال تحريفات أهل البدع لهذا الأثر.

الفصل الرابع: فى ذكر فوائد عامة مأخوذة من هذا الأثر، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ذكر ما فى قولهم: ((حتى علاه الرّحضاء)) من فائدة.

المبحث الثانى: ذكر ما فى قوله: ((ما أراك إلا مبتدعاً)) من فائدة.

المبحث الثالث: ذكر ما فى قوله: ((أخرجوه عنّى)) من فائدة.

الخاتمة: وفيها خلاصة البحث وأهمّ نتائجه.

هذا وإنى أسأل الله الكريم أن يتقبّل منى هذا العمل بقبول حسن، وأن يجعله لوجهه خالصاً، وللحق موافقاً، وأن يغفر لى ولوالدىّ وللإمام مالكٍ ولجميع أئمة المسلمين، وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنه هو الغفور الرحيم.

لعل من الحسن قبل الشروع فى الموضوع أن أمهّد بذكر بعض الأمور المهمّة بين يديه، وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: ترجمة موجزة للإمام مالك بن أنس -رحمه الله-(1).

أولاً: نسـبه:

هو شيخ الإسلام، حجّة الأمة، إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عَمرو بن الحارث بن غيمان بن خُثيل بن عَمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شدّاد بن زرعة، وهو حِمير الأصغر، الحِميرى ثم الأصبحى المدنى، حليف بنى تيم من قريش، فهم حلفاء عثمان أخى طلحة بن عبيد الله أحدِ العشرة.

وأمّه هى عالية بنت شريك الأزدية.

وأعمامه هم: أبو سُهيل نافع، وأويس، والربيع، والنضر، أولاد أبى عامر.

ثانياً: مولـده:

قال الذهبى -رحمه الله-: ((مولد مالك على الأصح فى سنة ثلاث وتسعين، عام موتِ أنس خادم رسول الله ، ونشأ فى صَون ورفاهية وتجمّل)).

ثالثاً: نشأته وطلبه للعلم:

طلب مالكٌ العلمَ وهو ابن بضع عشرة سنة ، وتأهّل للفتيا، وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة، وحدّث عنه جماعة وهو حىٌ شابٌ طرىٌ، وقصدَه طلبة العلم من الآفاق فى آخر دولة أبى جعفر المنصور وما بعد ذلك، وازدحموا عليه فى خلافة الرشيد، إلى أن مات.

(1) وهى ملخّصة من سير أعلام النبلاء للذهبى (48/8 وما بعدها)، وللوقوف على مصادر ترجمة الإمام مالك انظر هامش السير، الصفحة المتقدّمة.

رابعاً: شيوخه:

طلب الإمام مالك -رحمه الله- العلمَ وهو حدَثٌ بُعيد موت القاسم وسالم، فأخذ عن نافع، وسعيد المقبرى، وعامر بن عبد الله ابن الزبير، وابن المنكدر، و الزهرى، وعبد الله بن دينار، وخلق.

وقد أحصى الذهبى -رحمه الله - شيوخه الذين روى عنهم فى الموطأ وذكر إلى جنب كلّ واحد منهم عدد ما روى عنه الإمام مالك ورتّبهم على حروف المعجم.

خامساً: تلاميذه:

قال الذهبى -رحمه الله-: ((وقد كنت أفردتُ أسماء الرواة عنه فى جزء كبير يُقارب عددهم ألفاً وأربع مائة، فلنذكر أعيانهم، حدّث عنه من شيوخه: عمّه أبو سُهيل ، ويحيى بن أبى كثير، والزهرى ، ويحيى بن سعيد، ويزيد بن الهاد، وزيد بن أبى أنيسة، وعمر بن محمد بن زيد، وغيرهم، ومن أقرانه: معمر، وابن جريج، وأبو حنيفة، وعمرو بن الحارث، والأوزاعى، وشعبة، والثورى ...))، وذكر آخرين.

سادساً: مؤلفاته:

من مؤلفاته -رحمه الله-:

1ـ الموطأ.

2ـ رسالة فى القدر كتبها إلى ابن وهب.

3ـ مؤلف فى النجوم ومنازل القمر.

4ـ رسالة فى الأقضية.

5ـ رسالة إلى أبى غسان بن مطرّف.

6ـ جزء فى التفسير.

وأما ما نقله عنه كبار أصحابه من المسائل والفتاوى والفوائد فشيءٌ كثيرٌ.

سابعاً: ثناء العلماء عليه:

1ـ قال الشافعى: ((العِلمُ يدور على ثلاثة: مالك، والليث، وابن عيينة)).

2ـ وروى عن الأوزاعى أنه كان إذا ذكر مالكاً يقول: ((عالم العلماء، ومفتى

الحرمين)).

3ـ وعن بقيّة أنّه قال: ((ما بقى على وجه الأرض أعلم بسنّةٍ ماضية منك يا مالك)).

4 ـ وقال أبو يوسف: ((ما رأيت أعلمَ من أبى حنيفة، ومالك ، وابن أبى ليلى)).

5 ـ وذكر أحمد بن حنبل مالكاً فقدّمه على الأوزاعى، والثورى، والليث، وحماد، والحَكم، فى العلم، وقال: ((هو إمام فى الحديث، وفى الفقه)).

6ـ وقال القطّان: ((هو إمام يُقتدى به)).

7ـ وقال ابن معين: ((مالكٌ من حُجج الله على خلقه)).

8ـ وقال أسد بن الفرات: ((إذا أردتَ الله والدارَ الآخرة فعليك بمالكٍ)).

ثامناً: أقواله في السنة:

1ـ قال مطرّف بن عبد الله: سمعتُ مالكاً يقول: ((سنّ رسول الله وولاة الأمر بعده سُنناً، الأخذُ بها اتباع لكتاب الله ، واستكمالٌ بطاعة الله، وقوّةٌ على دين الله، ليس لأحد تغييرها، ولا تبديلها، ولا النّظرُ فى شىء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتدٍ، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاّه الله ما تولى، وأصلاه جهنّم وساءت مصيراً)).

2 ـ وروى إسحاق بن عيسى عن مالك -رحمه الله- أنّه قال: ((أكلما جاءنا رجلٌ أجدلُ من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمد لجدلِه)).

3ـ وقال أبو ثور: سمعت الشافعىّ يقول: ((كان مالك إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال: أمّا إنى على بيّنة من دينى، وأمّا أنت فشاكٌ، اذهب إلى شاكٍّ مثلكَ فخاصمه)).

4 ـ وقال يحيى بن خلف الطّرسوسى: ((كنت عند مالك فدخل عليه رجل، فقال: يا أبا عبد الله ما تقول فيمن يقول: القرآن مخلوق؟ فقال مالك: زنديق، اقتلوه، فقال: يا أبا عبد الله، إنّما أحكى كلاماً سمعته، قال: إنّما سمعته منك، وعظّم هذا القول)).

5ـ وروى ابن وهب عن مالك -رحمه الله- أنّه قال: ((الناس ينظرون إلى الله يوم القيامة بأعينهم)).

6 ـ وقال القاضى عياض: قال معنٌ: ((انصرف مالكٌ يوماً فلحقه رجلٌ يُقال له: أبو الجويرية، متّهمٌ بالإرجاء، فقال: اسمع منى، قال: احذر أن أشهد عليك، قال: والله ما أريد إلا َ الحق، فإن كان صواباً فقل به، أو فتكلم، قال: فإن غلبتنى، قال: اتبعنى، قال: فإن غلبتُك، قال: اتبعتُك، قال: فإن جاء رجل فكلمنا، فغلبنا؟ قال: اتبعناه، فقال مالك: يا هذا، إنّ الله بعث محمداً بدين واحد، وأراك تتنقّل)).

7 ـ وعن مالك قال: ((الجدالُ فى الدّين ينشئ المراء، ويذهب بنور العلم من القلب ويقسّى، ويورث الضِّغن)).

تاسعاً: وفاتـه:

قال القعنبى: ((سمعتهم يقولون: عُمر مالك تسع وثمانون سنة، مات سنة تسع وسبعين ومائة)).

وقال إسماعيل بن أبى أويس: ((مرض مالك، فسألتُ بعض أهلنا عما قال عند الموت، قالوا: تشهّد، ثم قال: للهِ الأ َمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ [1]، وتوفى صبيحة أربع عشرة من ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة ، فصلّى عليه الأمير عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس الهاشمى، وَلَد زينب بنت سليمان العباسية، ويُعرف بأمِّه))، رواها محمد بن سعد عنه، ثم قال: ((وسألتُ مصعباً، فقال: بل مات فى صفر، فأخبرنى معن بن عيسى بمثل ذلك)).

وقال أبو مصعب الزهرى: ((مات لعشر مضت من ربيع الأول سنة تسع)).

وقال محمد بن سحنون: ((مات فى حادى عشر ربيع الأول)).

وقال ابن وهب: ((مات لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول)).

قال القاضى عياض: ((الصحيح وفاته فى ربيع الأول يوم الأحد لتمام اثنين وعشرين يوماً من مرضه)).

قال الذهبى: ((تواترت وفاته فى سنة تسع، فلا اعتبار لقول من غلِط وجعلها فى سنة ثمان وسبعين، ولا اعتبار بقول حبيب كاتبه، ومطرّف فيما حكى عنه، فقالا: سنة ثمانين ومائة)).

ونقل عن القاضى عياض أنّ أسد بن الفرات قال: ((رأيتُ مالكاً بعد موته،

(1) سورة الروم، الآية: (4).

وعليه طويلة وثياب خضر وهو على ناقة، يطير بين السماء والأرض، فقلت: يا أبا عبد الله، أليس قد متّ؟ قال: بلى، فقلت: فإلامَ صِرتَ؟، فقال: قدِمتُ على ربي وكلّمني كفاحاً، وقال: سلني أعطِك، وتمنّ عليّ أُرضِك)).

فرحمه الله، وغفر له، وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنّة.

المبحث الثانى: فى ذكر معتقد أهل السنة والجماعة فى صفة الا ستواء بإيجاز

الاستواء صفةٌ من صفات الكمال الثابتة لذى العظمة والجلال -سبحانه-، وقد دلّ النقل على هذه الصفة حيث أثبتها الربُّ -سبحانه- لنفسه فى كتابه، وأثبتها له رسوله فى سنّته، وأجمع على ثبوتها المسلمون.

وقد وردت هذه الصفة فى القرآن الكريم فى مواطن عديدة، وكان ورودها فيه على نوعين: تارة معدّاة بـ ((على))، وتارة معدّاة بـ ((إلى)).

1 ـ أمّا النوع الأول: وهو مجيئها معدّاة بـ ((على)) فقد ورد فى القرآن الكريم فى سبعة مواضع، حيث تمدّح بها الرب -سبحانه-، وجعلها من صفات كماله وجلاله، وقرنها بما يبهر العقول من صفات الجلال والكمال، مما يدل على ثبوت هذه الصفة العظيمة لله ثبوت غيرها من الصفات.

قال الشيخ العلا مة محمد الأمين الشنقيطى -رحمه الله- : ((اعلموا أنّ هذه الصفة التى هى الاستواء صفةٌ كمال وجلال تمدّح بها ربُّ السموات والأرض، والقرينة على أنّها صفة كمال وجلال أنّ الله ما ذكرها فى موضع من كتابه إلا مصحوبة بما يبهر العقول من صفات جلاله وكماله التى هى منها، وسنضرب مثلا بذكر الآيات:

فأوّل سورة ذكر الله فيها صفة الاستواء حسب ترتيب المصحف سورة ا لأعراف قال: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (1)، فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

(1) سورة الأعراف، الآية: (54).

الموضع الثاني في سورة يونس قال: إِنّ رَبّكُمُ اللّه ُ الّذِي خَلَقَ السّمَوَاتِ وَالأ َرْضَ فِي سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبّرُ الأ َمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلا ّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّه ُ رَبّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا َ تَذَكّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللّه ِ حَقّاً إِنّهُ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ بِالقِسْطِ وَالّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ هُوَ الّذِي جَعَلَ الشّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السّنِينَ وَالحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّه ُ ذَلِكَ إِلا ّ بِالحَقّ يُفَصّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنّ فِي اخْتِلافِ اللّيْلِ وَ النّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّه ُ فِي السّمَوَاتِ وَالأ َرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتّقُونَ (1).

فهل لأحد أن ينفيَ شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الكمال والجلا ل.

الموضع الثالث في سورة الرعد في قوله جلّ وعلا: اللّه ُ الّذِي رَفَعَ السّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌ يَجْرِي لأ َجَلٍ مُسَمّى يُدَبّرُ الأ َمْرَ يُفَصّلُ الآيَاتِ لَعَلّكُمْ بِلِقَآءِ رَبّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الّذِي مَدّ الأ َرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلّ الثّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللّيْلَ النّهَارَ إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ وَفِي الأ َرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأ ُكُلِ إِنّ فِي

(1) سورة يونس، الآيات: (3 ـ 6).

ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (1)، وفي القراءة الأخرى: وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ تُسْقَى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

الموضع الرابع في سورة طه: طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى (2).

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

الموضع الخامس في سورة الفرقان في قوله: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (3).

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الكمال والجلا ل.

الموضع السادس في سورة السجدة في قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ

---

(1) سورة الرعد، الآيات: (2 ـ 4).
(2) سورة طه، الآيات: (1 ـ 7).
(3) سورة الفرقان، الآيات: (58،59).

هُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ اللَّهُ الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ مَا لَكُمْ مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ذَلِكَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ الذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِن مَّآءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ

وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (1).

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الجلال و الكمال.

الموضع السابع في سورة الحديد في قوله تعالى: هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ هُوَ الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2))(3).

أما النوع الثاني: وهو مجيئها معدّاة بـ ((إلى)) فقد ورد في القرآن في موطنين:

---

(1) سورة السجدة، الآيات: (3 ـ 9).
(2) سورة الحديد، الآيات: (3،4).
(3) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص:15 ـ 17).

الأول فى سورة البقرة، قال الله تعالى: هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (1).

الثانى: فى سورة فُصّلت، قال الله تعالى: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (2).

والاستواء معناه معلوم فى لغة العرب ، لا يجهله أحد منهم، والله قد خاطب عباده فى القرآن الكريم بكلام عربىٍّ مبين، والاستواء معناه فى اللغة العلوّ والارتفاع (3).

ولهذا فإنّ مذهب السلف فى الاستواء هو إثباته لله كما أثبته لنفسه، وكما أثبته له رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأنّ الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله وكماله، ولا يشبه استواء أحد من خلقه -تعالى الله عن ذلك-، ومعنى الاستواء عندهم العلوّ والارتفاع، ولا خلاف بينهم فى ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: ((وكلام السلف والأئمة ومن نقل مذهبهم فى هذا الأصل كثير يوجد فى كتب التفسير والأصول.

قال إسحاق بن راهويه: حدّثنا بشر بن عمر: سمعت غير واحد من المفسّرين يقولون: ((الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى : أى ارتفع))(4).

وقال البخارى فى صحيحه: قال أبو العالية: ((استوى إلى السماء: ارتفع))،

---

(1) سورة البقرة، الآية: (29).

(2) سورة فصّلت، الآية: (11).

(3) هذا إذا كان معدّى بـ ((إلى)) أو ((على)) ، أما إذا كان مطلقاً كقوله تعالى: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى فإنّ معناه: كمُل وتمّ، وأمّا إذا كان مقروناً بواو (مع) التى تعدى الفعل إلى المفعول معه نحو: ((استوى الماء والخشبة)) فإنّ معناه ساواها، انظر: مختصر الصواعق (ص:320).

(4) أورده الذهبى فى العلو، وقال الألبانى -حفظه الله- (ص:160 ـ مختصره): ((وهذا إسناد صحيح مسلسل بالثقات الحفاظ ...)).

قال: وقال مجاهد: ((استوى: علا على العرش))(1).

وقال الحسين بن مسعود البغوى فى تفسيره المشهور: ((وقال ابن عباس وأكثر مفسري السلف: استوى إلى السماء: ارتفع إلى السماء، وكذلك قال الخليل بن أحمد))(2).

وروى البيهقى فى كتاب الصفات قال: قال الفرّاء: ((ثم استوى، أى صعد، قاله ابن عباس، وهو كقولك للرجل: كان قاعداً فاستوى قائماً))(3).

وروى الشافعى فى مسنده عن أنس أنّ النبى قال عن يوم الجمعة: ((وهو اليوم الذى استوى فيه ربّكم على العرش))(4).

والتفاسير المأثورة عن النبى والصحابة والتابعين مثل تفسير محمد بن جرير الطبرى، وتفسير عبد الرحمن بن إبراهيم المعروف بدُحيم، وتفسير عبدالرحمن بن أبى حاتم ، وتفسير أبى بكر بن المنذر، وتفسير أبى بكر عبد العزيز، وتفسير أبى الشيخ الأصبهانى، وتفسير أبى بكر بن مردويه، وما قبل هؤلاء من التفاسير مثل تفسير أحمد بن حنبل وإسحاق بن إبراهيم، وبقى بن مخلد وغيرهم، ومن قبلهم مثل تفسير عبد بن حميد، وتفسير سُنيد، وتفسير عبد الرزاق، ووكيع بن الجراح فيها من هذا الباب الموافق لقول المثبتين ما لا يكاد

---

(1) صحيح البخارى (403/13 ـ الفتح).

(2) تفسير البغوى (59/1).

(3) الأسماء والصفات (310/2).

(4) مسند الشافعى (ص:70 ـ 71)، ورواه الذهبى فى العلو من طريق الشافعى (ص:29 ـ 30) ثم قال: ((إبراهيم وموسى ضعفاء، أخرجه الإمام محمد بن إدريس فى مسنده، وقد أخرجه الدارقطنى من طريق حمزة بن واصل المنقري، عن قتادة، عن أنس، ومن طريق عنبسة الرازى، عن أبى اليقظان عثمان بن عُمير، عن أنس، عن ابن محمد بن شعيب بن سابور، عن عمر مولى عفرة، عن أنس.

وأخرجه القاضى أبو أحمد العسّال فى كتاب المعرفة له عن رجال، عن جرير ابن عبد الحميد ، عن ليث بن أبى سليم، عن عثمان بن أبى حميد ـ وهو أبو اليقظان ـ عن أنس، ورواه من طريق سلام بن سليمان، عن شعبة وإسرائيل وورقاء، عن ليث أيضاً.

وساقه الدارقطني من رواية شجاع بن الوليد، عن زيادة بن خيثمة، عن عثمان ابن أبى سليمان، عن أنس، والظاهر أنّ عثمان أبو اليقظان، وحدّث به الوليد ابن مسلم، عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن سالم بن عبد الله، عن أنس ابن مالك، وهذه طرق يعضد بعضها بعضاً، رزقنا الله وإيّاكم لذّة النظر إلى وجهه الكريم)).

يُحصى، وكذلك الكتب المصنّفة فى السنة التى فيها آثار النبى والصحابة و التابعين))[1].

وجاء عن الخليل بن أحمد قال: ((أتيت أبا ربيعة الأعرابى وكان من أعلم من رأيت وكان على سطح فلما رأيناه أشرنا إليه بالسلام، فقال: استووا، فلم ندر ما قال ، فقال لنا شيخ عنده: يقول لكم: ارتفعوا، قال الخليل: هذا من قوله تعالى: ثمّ اسْتَوَى إِلَى السّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ))[2]، أى: ارتفع وعلا[3].

والاستواء سواء عُدّيَ بـ"إلى" أو بـ"على" فمعناه العلو والارتفاع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: ((ومن قال: استوى بمعنى عَمَدَ، ذكره فى قوله: ثمّ اسْتَوَى إِلَى السّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ ؛ لأنّه عُدى بحرف الغاية، كما يقال: عمدت إلى كذا، وقصدت إلى كذا، ولا يقال: عمدت على كذا ولا قصدت عليه ، مع أنّ ما ذُكر فى تلك الآية لا يُعرف فى اللغة أيضاً، ولا هو قول أحد من مفسرىّ السلف ؛ بل المفسّرون من السلف قولهم بخلاف ذلك -كما قدّمناه عن بعضهم -))[4]، وقد حكى ابن القيم -رحمه الله- إجماع السلف على ذلك[5].

فهذا ملخّص معتقد أهل السنة والجماعة فى هذه الصفة، ومن أراد الاطّلاع على كلام أهل العلم فى هذه الصفة موسّعاً فليطالع الكتب التى أُفرِدت فى ذلك وهى كثيرة جداً، وكما قال السفارينى -رحمه الله-: ((وقد أكثر العلماء من التصنيف، وأجلبوا بخيلهم ورَجِلِهم من التأليف، فى ثبوت العلوّ والاستواء ونبّهوا على ذلك بالآيات والحديث وما حوى، فمنهم الراوى الأخبارَ بالأسانيد، ومنهم الحاذفُ لها وأتى بكلّ لفظٍ مفيدٍ، ومنهم المُطوّل المُسهب، ومنهم المُختصِر والمتوسّط والمهذّب، فمن ذلك ((مسألة العلوّ)) لشيخ الإسلام ابن تيمية، و((العلوّ)) للإمام الموفق صاحب التصانيف السنيّة، و((الجيوش الإس

(1) درء تعارض العقل والنقل (2/20 ـ 22)، وانظر أيضاً: مجموع الفتاوى (5/518 وما بعدها).
(2) سورة فصّلت، الآية: (11).
(3) أورده الذهبى فى العلو (ص:171 ـ مختصره).
(4) مجموع الفتاوى (5/521).
(5) مختصر الصواعق (ص:320).

لاميّة)) للإمام المحقق ابن قيّم الجوزية، و((كتاب العرش)) للحافظ شمس الدين الذهبى صاحب الأنفاس العليّة، وما لا أُحصى عدّهم إلا ّ بكلفة، والله تعالى الموفِّق))(1).

(1) لوامع الأنوار البهيّة (195،196/1).

المبحث الثالث: فى بيان أهميّة القواعد وعظم نفعها فى معرفة صفات الباري

لا ريب أنّ معرفةَ القواعد والأصول والضوابط الكليّة الجامعة يُعدُّ من أعظم العلوم وأجلّها نفعاً وأكثرها فائدةً، ذلك أنّ ((الأصول والقواعد للعلوم بمنزلة الأساس للبنيان والأصول للأشجار لا ثبات لها إلاّ بها، والأصول تبنى عليها الفروع، والفروع تثبت وتتقوّى بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويقوى وينمى نماءً مطّرداً ، وبها تعرف مآخذ الأصول، وبها يحصل الفرقان بين المسائل التى تشتبه كثيراً، كما أنّها تجمع النظائر والأشباه التى من جمال العلم جَمعُها))(1) إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة والمنافع الجليلة التى لا تحصى.

بل إنّ ((من محاسن الشريعة وكمالها وجمالها وجلالها: أنّ أحكامَها الأصوليّة والفروعية والعبادات والمعاملات وأمورها كلّها لها أصولٌ وقواعدُ تضبطُ أحكامَها وتجمعُ مُتفرّقَها وتنشر فروعَها وتردُّها إلى أصولها))(2).

والقاعدة: هى أمرٌ كلىٌّ ينطبق على جزئيّاتٍ كثيرةٍ تُفهم أحكامُها منها(3).

فإذا ضُبطت القاعدةُ وفُهم الأصلُ أمكن الإلمام بكثيرٍ من المسائل التى هى بمثابة الفرع لهذه القاعدة، وأُمن الخلطُ بين المسائل التى قد تشتبه، وكان فيها تسهيلٌ لفهم العلم وحفظه وضبطه، وبها يكون الكلام مبنياً على علمٍ متينٍ وعدلٍ وإنصافٍ.

ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: ((لا بُدّ أنْ يكون مع الإنسان أصولٌ كليّةٌ تُردُّ إليها الجزئيّات؛ ليتكلّم بعلمٍ وعدلٍ، ثمّ يعرف الجزئيّات كيف وقعت، وإلاّ فيبقى فى كذبٍ وجهلٍ فى الجزئيّات، وجهلٍ وظُلمٍ فى الكليّات فيتولّد فسادٌ عظيمٌ))(4).

---

(1) طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول للشيخ عبد الرحمن بن سعدى (ص:4).

(2) الرياض الناضرة للشيخ عبد الرحمن بن سعدى (ص:243).

(3) انظر: شرح الكوكب المنيّر للفتوحى (ص:6).

(4) الفتاوى (203/19).

لأجل هذا عُنى أهل العلم كثيراً بوضع القواعد وجَمعها فى الفنون المختلفة، فلا تكاد تجد فناً من الفنون إلا ّ وله قواعدُ كثيرةٌ وضوابطُ عديدةٌ تجمع مُتَفرّقَه، وتزيل مشتَبهَه، وتنير معالمَه، وتيسِّر فهمَه وحِفظَه وضبطَه(1)، ((ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل فى الكلام الطويل))(2).

ولهذا فإنه يترتب على العناية بالقواعد المأثورة والأصول الكليّة المنقولة عن السلف الصالح -رحمهم الله- من الفوائد والمنافع ما لا يعلمه إلا ّ الله؛ لأنّ فيها كما يقال وضعُ النقاط على الحروف، وفيها تجليةٌ للأ ُمور، وتوضيحٌ للمسائل، وإزالةٌ للبْس، وأمْنٌ من الخَلْط، إلى غير ذلك من الفوائد.

(1) انظر: مقدمة الرسالة التى بعنوان: ((فائدة جليلة فى قواعد الأسماء الحسنى)) المستلة من بدائع الفوائد لابن القيّم، بتحقيقى.
(2) تفسير ابن سعدى (3/5).

الفصل الأوّل

في تخريج هذا الأثر، وبيان ثبوته، وذكر الشواهد عليه من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح

المبحث الأوّل: تخريج هذا الأثـر وبيان ثبوته عن الإمام مالك -رحمه الله-

لقد اشتهر هذا الأثر عن الإمام مالك -رحمه الله- شهرة بالغة ، ورواه عنه طائفة من تلاميذه، وهو مروىٌ عنه من طرق عديدة، وقد حَظِى باستحسان أهل العلم، وتلقوه بالقبول، وهو مخرّج فى كتب عديدة من كتب السنة.

وفيما يلى ذكرٌ لما وقفت عليه من طرق لهذا الأثر مع ذكر مخرّجيها، وما وقفت عليه من كلام أهل العلم فى بيان ثبوته.

1ـ رواية جعفر بن عبد الله(1)

قال الحافظ أبو نعيم فى الحلية: حدّثنا محمد بن على بن مسلم العقيلى، ثنا القاضى أبو أميّة الغلابى، ثنا سلمة بن شبيب(2)، ثنا مهدى بن جعفر(3)، ثنا

(1) عدّه الذهبى فى المشتبه فى الرواة عن مالك، وتعقبّه ابن ناصر الدين فى توضيح المشتبه (98/4 ـ 99) بقوله: ((فيه نظر؛ لأنّ هذا الإطلاق يوهم أنّ شيخ جعفر مالكُ بن أنس الإمام، وكأنه ـ والله أعلم ـ عند المصنِّف الإمام مالك، فلهذا أطلقه، وليس بالإمام، إنّما هو مالك بن خالد الأسدى البصرى كما سمّاه الأمير وغيره))، وذكر نحواً من هذا ابن حجر فى تبصير المنتبه (621/2).

(2) هو سلمة بن شبيب النيسابورى أبو عبد الرحمن الحَجْرى المسمَعى، نزيل مكة. قال أبو حاتم: ((صدوق))، وقال أبو نعيم: ((أحد الثقات، حدّث عنه الأئمة والقدماء))، توفى سنة (247هـ)، انظر: تهذيب الكمال (284/11).

(3) هو مهدى بن جعفر بن جَيْهان بن بهرام الرملى، أبو محمد.

جعفر بن عبد الله قال: كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى كيف استوى؟، فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكتُ بعود فى يده حتى علاه الرّحضاء ـ يعنى العرق ـ ثمّ رفع رأسه ورمى بالعود وقال: ((الكيف منه غير معقول، والا ستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة))، وأمر به فأخرج(1).

ورواه الإمام أبو إسماعيل الصابونى فى كتابه ((عقيدة السلف)) قال: أخبرنا أبو محمد المخلدى العدل، حدّثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن مسلم الإ سفراييني، حدّثنا أبو الحسين على بن الحسن، حدّثنا سلمة بن شبيب به، وذكر نحوَه، إلا ّ أنّه قال: ((الكيف غير معلوم))(2).

ورواه أيضاً الإمام الصابونى من طريق أخرى قال: أخبرنا به جدّى أبو حامد أحمد بن إسماعيل، عن جدّ والدى الشهيد، وأبو عبد الله محمد بن عدى بن حمدويه الصابونى، حدّثنا محمد بن أحمد ابن أبى عون النسوى، حدّثنا سلمة بن شبيب به(3).

ورواه الحافظ اللالكائى فى شرح الاعتقاد من طريق على بن الربيع التميمى المقرى قال: ثنا عبد الله بن أبى داود قال: ثنا سلمة ابن شبيب به، بـ اللفظ السابق(4).

قال فيه ابن حجر: ((صدوق له أوهام)) كما فى التقريب له (برقم:6979).
ونقل ابن حجر فى تهذيبه (289/10) عن الذهبى قوله: ((رأيت له رواية عن مالك فى تفسير ابن أبى حاتم))، توفى سنة (230هـ).

(1) الحلية لأبى نعيم (325،326/6)، ورواه الذهبى فى السير (100/8) من طريق أبى نعيم.

(2) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص:38).

(3) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص:39).

(4) شرح الاعتقاد (398/3).

قال الألبانى -حفظه الله-: ((وأما ما عزاه إليه صاحب ((فرقان القران بين صفات الخالق وصفات الأكوان)) (ص:16): بلفظ: ((الاستواء مذكور)) فلم أره فيه، ولا رأيت من ذكره غير المشار إليه، وهو من الثقات [كذا فى الأصل وهو تصحيف من الطابع، والصواب ((وهو من النفاة))]؛ ولذلك ركن إلى هذا اللفظ لأن فيه ما يريده من نفى معنى الاستواء وأنه معروف عند مالك))، مختصر العلوّ (ص:142).

وتابعه بكّار بن عبد الله[1] عن مهدى بن جعفر عن مالك، ولم يذكر شيخه جعفر بن عبد الله.

أخرجه ابن عبد البر فى التمهيد[2]، أخبرنا محمد بن عبد الملك قال : حدّثنا عبد الله بن يونس قال : حدّثنا بقىٌ بن مخلد قال: حدّثنا بكار بن عبد الله القرشى قال: حدّثنا مهدى بن جعفر عن مالك ابن أنس أنه سُئل عن قول الله : الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى : كيف استوى؟، قال: فأطرق مالك ثم قال: ((استواؤه مجهول[3]، والفعل منه غير معقول، والمسألة عن هذا بدعة)).

وتابعه أيضاً الإمام الدارمى، قال فى كتابه الردّ على الجهميّة: حدّثنا مهدى بن جعفر الرملى ثنا جعفر بن عبد الله ـ وكان من أهل الحديث ثقة ـ عن رجل قد سمّاه لى، قال: جاء رجل إلى مالك ابن أنس، وذكره[4].

فزاد فى إسناده بعد جعفر بن عبد الله: ((عن رجل)).

ومهدى بن جعفر صدوق له أوهام وقد اضطرب فى روايته لهذه القصة، فرواها مرّة عن شيخه جعفر بن عبد الله عن مالك، ورواها مرّة أخرى عن شيخه جعفر عن رجل عن مالك، ورواها مرّة ثالثة عن مالك مباشرة، وهذا الاضطراب الذى فى هذه الطريق لا ينفى صحة القصة؛ لأنها قد جاءت من طرق أخرى تعضدها وتقوّيها -كما سيأتى-.

---

(1) هو بكار بن عبد الله بن بسر بن أرطاة الدمشقى القرشى.
روى عن أسد بن موسى، وروى عنه أحمد بن أبى الحوارى وأبو حاتم وأبو زرعة.
قال ابن أبى حاتم: ((كتبت عنه عن أبى وسألته عن بكار هذا؟ فقال: ((هو صدوق))، الجرح و التعديل (410/1/1).

(2) (151/7).

(3) كذا وردت العبارة فى التمهيد وهى يقيناً محرّفة، والصواب كما فى الطرق المتقدّمة للأثر وغيرها ((استواؤه غير مجهول))، وقد أفادنى أحد طلا ّب العلم الثقات باطّلاعه على النسخة الخطية للتمهيد فى المغرب ووجد لفظة [غير] ملحقة بالهامش من الناسخ، ثم وقفت على مصورة لها فوجدت الأمر كذلك.

(4) الردّ على الجهميّة (ص:55،56).

2ـ رواية عبد الله بن وهب[1]

قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أحمد بن محمد بن إسماعيل بن مهران[2]، ثنا أبي[3]، حدّثنا أبو الربيع بن أخي رشدين ابن سعد[4] قال: سمعت عبد الله بن وهب يقول: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال: يا أبا عبدالله الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى كيف استواؤه؟، قال: فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ، ثم رفع رأسه فقال: ((الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه، قال: فأخرج))[5].

قال الذهبي في العلوّ: ((وساق البيهقي بإسناد صحيح عن أبي الربيع

(1) هو عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي الفهري، أبو محمد.
روى عن خلق كثير، وثقه ابن معين وأبو زرعة، وقال فيه أحمد بن حنبل: ((ما أصحّ حديثه وأثبتَه)).
وهو من أثبت الناس في مالك؛ فقد قال هارون بن عبد الله الزهري: ((كان الناس يختلفون في الشيء عن مالك، فينتظرون قدوم ابن وهب حتى يسألوه عنه)).
وقال أبو مصعب: ((مسائل ابن وهب عن مالك صحيحة))، توفي سنة (197هـ)، تهذيب الكمال (16/277 ـ 286).
وقال فيه ابن حجر في التقريب (رقم:3718): ((ثقة حافظ عابد)).

(2) أحمد بن محمد بن إسماعيل بن مهران الإسماعيلي النيسابوري أبو الحسن.
قال فيه الذهبي في تاريخ الإسلام (وفيات 331هـ فما بعدها) (ص:187): ((أبو الحسن الإسماعيلي النيسابوري العدل)).
وقال السمعاني في الأنساب (1/155): ((كان كثير السماع من أبيه)).

(3) محمد بن إسماعيل بن مهران أبو بكر الإسماعيلي، قال فيه الحاكم: ((هو أحد أركان الحديث بنيسابور، كثرة ورحلة واشتهارا ... ثقة مأمون))، قال إبراهيم ابن أبي طالب: ((لم يجوّد لنا حديث مالك كالإسماعيلي))، توفي سنة (295هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء (14/117 ـ 118).

(4) أبو الربيع هو سليمان بن داود بن حماد بن سعد المَهْري، وجدّه حماد بن سعد أخو رِشْدين بن سعد، توفي سنة (253هـ).
ترجم له المزي في تهذيب الكمال (11/409 ـ 410)، وذكر أنّ النسائي وثقه.

(5) الأسماء والصفات (2/304)، وأورده الذهبي في العلوّ (ص:141مختصره) والأربعين (ص:80 ضمن مجموع الرسائل الست للذهبي) والسير (8/100).

الرشدينى عن ابن وهب ...)) وذكره[1].

وقال الحافظ ابن حجر: ((وأخرج البيهقى بسند جيّد عن ابن وهب ...)) وذكره[2].

3ـ رواية يحيى بن يحيى التميمي[3]

قال البيهقى -رحمه الله- فى كتابه الأسماء والصفات:

أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد بن الحارث الفقيه الأصفهانى[4]، أنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيّان المعروف بأبى الشيخ[5]، ثنا أبو جعفر أحمد بن زيرك اليزدى: سمعت محمد بن عمرو بن النضر النيسابورى[6] يقول: سمعت يحيى بن يحيى يقول: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجـل فقال: يا أبا عبد الله الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى فكيف استوى؟، قال: فأطرق مالك رأسه حتى علاه الرحضاء ثم قال: ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ّ مبتدعاً. فأمر به أن يُخرج))[7].

ورواه البيهقى فى كتابه الاعتقاد بالإسناد نفسه[8].

وأورده الذهبى فى العلوّ قال: وروى يحيى بن يحيى التميمى وجعفر بن عبدالله وطائفة، وذكره ثم قال: ((هذا ثابت عن مالك))[9].

(1) مختصر العلوّ (ص:141).
(2) فتح البارى (406،407/13).
(3) هو يحيى بن يحيى بن بكر التميمى أبو زكريا النيسابورى.
وثقه أحمد وابن راهويه والنسائى وغيرهم. توفى سنة (226هـ)، تهذيب الكمال (31/32ـ37).
(4) أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن الحارث الفقيه التميمى الأصفهانى، قال فيه الذهبى فى تاريخ الإسلام (وفيات 430هـ) (ص:281): ((الزاهد المقرئ النحوى المحدِّث ...، وكان إماماً فى العربية)).
(5) أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيّان المعروف بأبى الشيخ، قال فيه الخطيب البغدادى: ((كان أبو الشيخ حافظاً ثبتاً متقناً))، توفى سنة (369هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء (277/16 ـ 279).
(6) أبو على محمد بن عمرو بن النضر الجرشى النيسابورى، قال الذهبى فى تاريخ الإسلام (وفيات: 281 ـ 290) (ص:282): ((وكان صدوقاً مقبولا ً)).
(7) الأسماء والصفات (305،306/2).
(8) الاعتقاد (ص:56)، مختصر العلوّ (ص:141).
(9) مختصر العلوّ (ص:141).

وقال الإمام شمس الدين محمد بن عبد الهادى فى كتابه فى الاستواء: ((صحيح ثابت عن مالك))(1).

4ـ رواية جعفر بن ميمون(2)

قال الإمام أبو إسماعيل الصابونى حدّثنا أبو الحسن بن إسحاق المدنى، حدّثنا أحمد بن الخضر أبو الحسن الشافعى(3)، حدّثنا شاذان، حدّثنا ابن مخلد بن يزيد القهستانى، حدّثنا جعفر بن ميمون قال: سئل مالك بن أنس عن قوله: الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى كيف استوى؟، قال: ((الاستواء غير مجهول ، و الكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ّ ضالا ً، وأمر به أن يخرج من مجلسه))(4).

5ـ رواية سفيان بن عيينة(5)

(1) (ق: 4) وهو عندى قيد التحقيق.

(2) هو جعفر بن ميمون التميمى أبو علىّ، ويقال: أبو العوّام الأنماطى.
روى عن أبى العالية وعطاء بن أبى رباح وغيرهما، وروى عنه السفيانان ويحيى بن سعيد القطان وغيرهم.
قال عنه أحمد: ((ليس بقوىٍّ فى الحديث))، ونحوه عن النسائى.
وقال فيه ابن معين: ((ليس بذاك))، وقال فى موضع آخر: ((ليس بثقة))، وقال فى موضع آخر: ((صالح الحديث)).
وقال أبو حاتم: ((صالح))، ولعله من أجل هذا قال فيه الدارقطنى: ((يُعتبَر به)).
انظر: تهذيب الكمال (114،115/5).
وقال فيه ابن حجر فى التقريب (رقم:969): ((صدوق يخطئ، من السادسة)).

(3) هو أحمد بن الخَضِر بن أحمد أبو الحسن النيسابورى الشافعى.
قال فيه الذهبى فى السير (501/15): ((الحافظ المجوّد الفقيه ...، من كبار الأئمة ...، مات فى جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وثلاثمائة)).

(4) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص:38).

(5) هو سفيان بن عيينة بن أبى عمران، أبو محمد الكوفى ثم المكى.
قال فيه ابن حجر فى التقريب (رقم:2464): ((ثقة، حافظ، فقيه، إمام، حجة، إلا ّ أنّه تغيّر حفظه بآخرة، وكان ربّما دلّس لكن عن الثقات)).
وقال عنه الشافعى: ((لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز))
وأما اختلاطه فرُوى عن يحيى بن سعيد القطان، وأنّ ذلك كان فى سنة (197هـ) أى سنة وفاة سفيان، قال الذهبى متعقِباً إيّاه: ((أنا أستبعد صحّةَ هذا القول؛ فإنّ القطان مات فى

قال القاضى عياض: ((قال أبو طالب المكى: كان مالك -رحمه الله- أبعدَ الناس من مذاهب المتكلِمين، وأشدّهم بُغضاً للعراقيين، وألزَمَهم لسنة السالفين من الصحابة والتابعين، قال سفيان بن عيينة : سأل رجلٌ مالكاً فقال: الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى كيف استوى يا أبا عبد الله؟، فسكت مالكٌ مليّا حتى علاه الرحضاء، وما رأينا مالكاً وجد من شيء وجده من مقالته، وجعل الناس ينظرون ما يأمر به، ثمّ سُرِيّ عنه فقال: ((الاستواء منه معلوم، والكيف منه غير معقول، والسؤال عن هذا بدعة، والإيمان به واجب، وإنى لأظنّك ضالاً، أخرجوه)).

فناداه الرجل: يا أبا عبد الله، والله الذى لا إله إلا هو، لقد سألتُ عن هذه المسألة أهلَ البصرة والكوفة والعراق، فلم أجِد أحداً وُفِّق لما وُفِّقت له))[1].

6 ـ رواية محمد بن النعمان بن عبد السلام التيمى[2].

قال أبو الشيخ الأنصارى فى كتابه طبقات المحدّثين: حدّثنا عبد الرحمن بن الفيض[3]، قال: ثنا هارون بن سليمان[4]، قال: سمعت محمد بن النعمان بن

صفر سنة ثمان وتسعين، بُعيد قدوم الحُجّاج بقليل، فمن الذى أخبره باختلاط سفيان؟، ومتى لَحِقَ يقول هذا القول؟!، فسفيان حجّةٌ مطلقاً بالإجماع من أرباب الصحاح))، كذا فى تاريخ الإسلام وفيات (191 ـ 200هـ، ص:199).

(1) ترتيب المدارك للقاضى عياض (39/2)، ونقله الذهبى فى سير أعلام النبلاء (106،107/8).

(2) أبو عبد الله التيمى الأصبهانى.

قال عنه أبو الشيخ الأنصارى: ((محدّث ابن محدّث ابن محدّث، توفى سنة أربعٍ وأربعين ومائتين، يحدّث عن وكيع وابن عيينة وحفص بن غياث وأبى بكر بن عياش وغيرهم، أحد الورعين، قليل الحديث، لم يحدّث إلا بالقليل))، طبقات المحدّثين بأصبهان (211/2).

وقال عنه الذهبى: ((شيخ أصبهان، وابن شيخها، وأبو شيخها عبد الله))، تاريخ الإسلام وفيات (241 ـ 250) (ص:475).

(3) هو عبد الرحمن بن الفيض بن سنده بن ظهر أبو الأسود، أحد الثقات الأصبهانيين، تاريخ الإسلام وفيات (321 ـ 330) (ص:84).

(4) هو هارون بن سليمان الخزار الأصبهانى، أحد الثقات، توفى سنة خمس، وقيل: ثلاث وستين ومائتين، أخبار أصبهان لأبى نعيم (336/2).

عبدالسلام يقول: ((أتى رجل مالكَ بنَ أنس فقال: الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى كيف استوى؟، قال: فأطرق، وجعل يعرق، وجعلنا ننتظر ما يأمر به، فرفع رأسه، فقال: ((الاستواء منه غير مجهول، والكيف منه غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالا ً، أخرجوه من داري))[1]، وإسناده جيّد.

7ـ رواية عبد الله بن نافع[2].

قال الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله-: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن[3]، قال: حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان ابن مالك[4]، قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل[5]، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثنا سريج بن

(1) طبقات المحدّثين بأصبهان (214/2).

(2) روى عن مالك رجلان بهذا الاسم:

أحدهما: عبد الله بن نافع الصائغ (ت206هـ).

والثاني: عبد الله بن نافع حفيد ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوّام، ولذلك يُقال له: الزبيري ، كما يُعرف بعبد الله بن نافع الصغير (ت216هـ).

ولم يتضح لي من خلال رواية ابن عبد البر هذه أيّهما المراد، وقد قال الذهبي في السير (372/10): ((وكثيراً ما تختلط روايتهم عند الفقهاء حتى لا علم عند أكثرهم بأنّهما رجلان))، ونقل قبل ذلك عن ترتيب المدارك للقاضي عياض أنّ سحنوناً كان يرى وجوب بيانهما، وإن كانا ثقتين إمامين حتى لا تختلط روايتهما.

قال: ((فإنّ الصائغ أكبر وأقدم وأثبت في مالك لطول صحبته له)).

وقد قال الحافظ ابن حجر في التقريب في الصائغ: ((ثقة صحيح الكتاب في حفظه لين))، وقال في الزبيري: ((صدوق)).

فليس في الأمر كبير إشكال؛ إذ حديث كل منهما لا ينزل عن درجة الحسن.

(3) عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، أبو محمد يعرف بابن الزيات، توفي سنة (390هـ).

انظر: جذوة المقتبس للحميدي (ص:252)، وبغية الملتمس للضبي (ص:332)، وفهرست ابن خير (ص:102،104)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (ص:1511).

(4) أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك بن شبيب البغدادي، أبو بكر القطيعي، راوي مسند أحمد، قال فيه الدارقطني: ((ثقة زاهد قديم))، وتكلِم فيه بأخرة، توفي سنة (368هـ).

انظر: السير للذهبي (212/16 ـ 213)، والمنهج الأحمد للعليمي (75/2 ـ 58).

(5) عبد الله بن إمام السنة أحمد بن حنبل.

قال فيه الذهبي في السير (516/13): ((الإمام الحافظ الناقد، محدّث بغداد أبو عبد الرحمن،

النعمان(1)، قال: حدّثنا عبد الله بن نافع، قال: قال مالك بن أنس: ((الله في السماء وعلمه في كلّ مكان، لا يخلو منه مكان، قال: وقيل لمالك: الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى كيف استوى؟، فقال مالك -رحمه الله-: استواؤه معقول، وكيفيته مجهولة، وسؤالك عن هذا بدعة، وأراك رجل سوء))(2).

8ـ رواية أيوب بن صالح المخزومي(3).

قال الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله-: وأخبرنا محمد بن عبد الملك(4)، قـال : حدّثنـا عبـد الله بـن يـونس(5)، قـال : حدّثنـا بقي بن مخلد(6)، قال:

ابن شيخ العصر أبي عبد الله ...)).

وقال الخطيب في تاريخه (375/9): ((وكان ثقة ثبتاً فهماً))، توفي سنة (290هـ).

(1) سريج بن النعمان بن مروان الجوهري اللؤلؤي، أبو الحسين، ويُقال أبو الحسن البغدادي.

وثقه يحيى بن معين، والعجلي، وأبو داود، وغيرهم.

وقال فيه ابن حجر: ((ثقة يهم قليلاً))، كذا في التقريب، توفي سنة (217هـ).

انظر: تهذيب الكمال للمزي (218/10).

(2) التمهيد (138/7). والمراد بقوله: ((الاستواء معقول)) أي: معقول المعنى كما في الروايات الأخرى، وكما تفيده الجملة التي بعده، ألا وهي قوله: ((وكيفيته مجهولة)).

(3) أيوب بن صالح بن سلمة الحراني المخزومي أبو سليمان المدني، سكن الرملة، وروى عن مالك الموطأ، ضعّفه ابن معين، وقال فيه ابن عدي: ((روى عن مالك ما لم يتابعه عليه أحد))، لسان الميزان (483/1)، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (131/1)، المغني في الضعفاء للذهبي (155/1).

(4) محمد بن عبد الملك بن ضيفون اللخمي القرطبي الحدّاد، أبو عبد الله.

قال فيه ابن الفرضي: ((كان رجلاً صالحاً أحد العدول، وكتب الناس عنه، وعلت سنّه فاضطرب في أشياء قُرئت عليه وليست ممّا سمع، ولا كان من أهل الضبط))، توفي سنة (492هـ).

انظر: تاريخ العلماء لابن الفرضي (110/2)، والسير للذهبي (56/17)، ولسان الميزان لابن حجر (267/5)، وقد تحرّف في مطبوعة اللسان إلى (محمد بن عبد الملك بن صفوان!).

(5) عبد الله بن يونس بن محمد بن عبيد الله المرادي أبو محمد، يُعرف بالقبْري، من قبْرة الأندلس.

هو صاحب بقي بن مخلد، سمع منه مصنّف ابن أبي شيبة، توفي سنة (330هـ).

انظر: تاريخ العلماء لابن الفرضي (265/1)، وتوضيح المشتبه لابن ناصر الدين (178/7).

(6) بقي بن مَخلَد بن يزيد، أبو عبد الرحمن الأندلسي القرطبي.

حدّثنا بكّار بن عبد الله القرشى[1] ... وساق روايته للأثر المتقدّمة من طريق مهدى بن جعفر، ثم قال: قال بقى: وحدّثنا أيوب بن صلاح[2] المخزومى بـ الرملة، قال: ((كنا عند مالك إذ جاءه عراقى فقال له: يا أبا عبد الله مسألة أريد أن أسألك عنها؟، فطأطأ مالك رأسه فقال له: يا أبا عبدالله الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى كيف استوى؟، قال: سألتَ عن غير مجهول، وتكلّمت فى غير معقول، إنّك امرؤ سوء، أخرجوه، فأخذوا بضبعيه فأخرجوه))[3].

9ـ رواية بشّار الخفّاف الشيباني[4].

قال ابن ماجه فى التفسير: حدّثنا على بن سعيد[5]، قال: حدّثنا بشّار الخفّاف أو غيره، قال: ((كنت عند مالك بن أنس فأتاه رجل فقال: يا أبا عبدالله الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ، كيف استوى؟، وذكره، كذا فى تهذيب الكمال[6].

وقال أبو المظفر السمعانى فى تفسيره: ((وقد رووا عن جعفر بن عبد الله

قال ابن الفرضى: ((كان بقىٌ ورعاً فاضلا ً زاهداً)).

وقال الذهبى: ((الإمام القدوة شيخ الإسلام ... الحافظ، صاحب التفسير والمسند اللذين لا نظير لهما))، توفى سنة (276هـ).

انظر: تاريخ العلماء (1/107 ـ 109)، وسير أعلام النبلاء (13/285).

(1) بكار بن عبد الله بن بسر الدمشقى القرشى.

قال فيه أبو حاتم فى الجرح والتعديل (2/410): ((هو صدوق)).

(2) كذا فى التمهيد، وهو خطأ.

(3) التمهيد (7/151).

(4) هو بشار بن موسى الخفّاف الشيبانى أبو عثمان، روى عن مالك، وروى عنه علىّ بن سعيد النسوى، تكلّم فيه البخارى ويحيى بن معين، وأبو داود، والنسائى وعلى بن المدينى، وغيرهم.

قال أحمد بن يحيى بن الجارود: سمعت علياً [يعنى: ابن المدينى] وذكر بشار بن موسى [الخفاف] فقال: ما كان ببغداد أصلب منه فى السنة، وما أحسن رأى أبى عبد الله فيه، يعنى أحمد بن حنبل، انظر: تهذيب الكمال (4/85 ـ 90).

(5) هو على بن سعيد النسوى أو النسائى، قال فى التقريب: ((صدوق صاحب حديث)).

(6) (4/90)، و(20/449).

وبشر الخفّاف[1] قالا: كنّا عـند مالك بن أنس فأتـاه رجل فسأله عن قوله: الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ، كيف استوى؟ فأطرق مالك مليّا، وعلاه الرحضاء، ثم قال: ((الكيف غير معقول، الاستواء مجهول[2]، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنّك إلا ضالا ً، ثم أمر به فأخرج))[3]، من غير شك في رواية بشار الخفاف.

10 ـ رواية سحنون[4] عن بعض أصحاب مالك.

قال ابن رشد في البيان والتحصيل: قال سحنون: أخبرني بعض أصحاب مالك أنه كان قاعداً عند مالك فأتاه رجل فقال: ((يا أبا عبد الله مسألة؟، فسكت عنه ثم قال له: مسألة؟، فسكت عنه، ثم عاد فرفع إليه مالك رأسَه كالمجيب له، فقال السائل: يا أبا عبد الله: الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ، كيف كان استواؤه؟ فطأطأ مالك رأسَه ساعة ثم رفعه، فقال: ((سألتَ عن غير مجهول، وتكلّمتَ في غير معقول، ولا أراك إلا امرأ سوء، أخرجوه))[5].

فهـذا جملة ما وقفت عليه من طرق لهذا الأثر عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس -رحمه الله-، وبعض طرقه صحيحة ثابتة، وبعضها لا يخلو من مقال، إلا أنّها يشدّ بعضها بعضاً، ويشهد بعضها لبعض، والأثر ثابت بلا ريب بمجموع هذه الطرق، ولذا اعتمده أهل العلم، وصححه غير واحد، وقد تقدّم الإشارة إلى بعض من صحّحه، ولا يُعرف أحدٌ منهم ضعّفه، وسيأتي في مبحث لاحق نقل كلام أهل العلم في التنويه به، والثناء عليه، وتلقيهم له بالقبول والاستحسان.

(1) كذا، ولعله مصحّف من ((بشار)).

(2) كذا في المصدر المنقول عن والصواب ((الاستواء غير مجهول)).

(3) تفسير السمعاني (320/3).

(4) سحنون: هو الإمام العلا مة فقيه المغرب، أبو سعيد عبد السلام بن حبيب بن حسان التنوخي، قاضي القيروان، وصاحب المدونة.

سمع من ابن عيينة، ولازم تلاميذ مالك: ابن وهب وابن القاسم وأشهب، حتى صار من نظرائهم، توفي سنة (240هـ).

انظر: السير للذهبي (63/12 ـ 69).

(5) البيان والتحصيل (367/16 ـ 368).

المبحث الثانى: ذكر الشواهد على هذا الأثر من الكتاب والسنة

لقد تضمّن هذا الأثر العظيم جملاً أربعاً وهى:

1 ـ الاستواء غير مجهول.

2 ـ والكيف غير معقول.

3 ـ والإيمان به واجب.

4 ـ والسؤال عنه بدعة.

وهى جمل صحيحة المعنى عظيمة الدلالة، لكلّ جملة منها شواهدها الكثيرة فى كتاب الله وسنة رسوله ، وسيمرُ معنا فى ثنايا هذا المبحث العديد من النصوص التى تشهد لصحة كلّ جملة من هذه الجمل، ولنقف هنا مع كلّ جملة من هذه الجمل لذكر بعض الشواهد عليها من القرآن والسنة.

أولاً: أما قوله: ((الاستواء غير مجهول)) فالمراد به أنّ الاستواء معلوم المعنى؛ لأنّ الله قد خاطبنا فى القـرآن الكريم بكلام عربىّ مبين ، قال الله تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (1) ، وقال تعالى: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2)، وقال تعالى: كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)، وقال تعالى: وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً (4)، وقال تعالى: قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (5)، فهو -سبحانه- أنزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين؛ ((لأنّ لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس

---

(1) سورة الشعراء، الآية: (195).

(2) سورة يوسف، الآية: (2).

(3) سورة فصّلت، الآية: (3).

(4) سورة الأحقاف، الآية: (12).

(5) سورة الزمر، الآية: (28).

، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات))(1)، وليفهم المخاطبون به كلام الله وليعقلوا خطابه ويحيطوا بمعانيه كما قال -سبحانه-: وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ (2) فمن لطف الله بخلقه أنه يرسل إليهم الرسل منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ (3)، وفي المسند من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله : ((لم يبعث الله نبيًا إلا بلغة قومه))(4).

والقرآن الكريم شأنه كذلك، فهو بلسان عربيّ مبين، يفهمه المخاطبون به، فمدلولاته ظاهرة، ومعانيه واضحة، وقد فهمه المخاطبون به وعقلوا معناه، ولا سيما في أشرف مقاصده وأعظم أبوابه وهو توحيد الله ، ((ومن المعلوم أنّ الصحابة سمعوا القرآن والسنة من النبي ، وقرأوه وأقرأوه مَن بعدهم، وتكلم العلماء في معانيه وتفسيره، ومعاني الحديث وتفسيره، وما يتعلق بالأحكام وما لا يتعلق بها، وهم مجمعون على غالب معاني القرآن والحديث، ولم يتنازعوا إلا في قليل من كثير، لا سيما القرون الأولى، فإنّ النزاع بينهم كان قليلا جدًا بالنسبة إلى ما اتفقوا عليه، وكان النزاع في التابعين أكثر، وكلما تأخّر الزمان كثر النزاع وحدث من الاختلاف بين المتأخرين ما لم يكن في الذين قبلهم، فإنّ القرآن تضمّن الأمر بأوامر ظاهرة وباطنة، والنهي عن مناهٍ ظاهرة وباطنة، ورسول الله بيّن مقادير الصلوات ومواقيتها وصفاتها، والزكوات ونصبها ومقاديرها، وكذلك سائر العبادات، وعامة هذه الأمور نقلتها الأمة نقلا عاماً متواتراً

(1) تفسير ابن كثير (294/4).
(2) سورة فصّلت، الآية: (44).
(3) سورة إبراهيم، الآية: (4).
(4) المسند (158/5). قال الهيثمي في المجمع (43/7): ((رجاله رجال الصحيح، إلا أنّ مجاهداً لم يسمع من أبي ذر))، لكن يشهد له القرآن.

خلفاً عن سلف، وحصل العلم الضرورى للخلق بذلك كما حصل لهم العلم الضرورى بأنّه بلغهم ألفاظها، وأنّه قاتل المشركين وأهل الكتاب، وأنّه بُعث بمكة وهاجر إلى المدينة، وأنّه دعا الأمة إلى أن شهدوا أن لا إله إلا اللّٰه وأنّ محمداً رسول اللّٰه، وأخبرهم أنّ هذا القرآن كلام اللّٰه الذى تكلّم به لا كلامه ولا كلام مخلوق، وأنّه ليس قول البشر، وأنّه علمهم أنّ ربه فوق سمواته على عرشه، وأنّ المَلَك نزل من عنده إليه، ثم يعرج إلى ربّه، وأنّ ربّه يسمع ويرى ويتكلّم وينادى ويحب ويبغض ويرضى ويغضب، وأنّ له يدَيْن ووجهاً ، وأنّه يعلم السِرّ وأخفى، فلا يخفى عليه خافية فى السماء ولا فى الأرض، وأنّه يقيمهم من قبورهم أحياء بعدما مزّقهم البِلى إلى دار النعيم أو إلى الجحيم))[1].

ثمّ ((إنّ اللّٰه -سبحانه- وصف نفسه بأنّه بيّن لعباده غاية البيان، وأمر رسوله بالبيان، وأخبر أنّه أنزل عليه كتابه ليبيّن للناس، ولهذا قال الزهرى: ((مِن اللّٰه البيان، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم))[2]، فهذا البيان الذى تكفّل به -سبحانه-، وأمر به رسوله، إما أن يكون المراد به بيان اللفظ وحده، أو المعنى وحده، أو اللفظ والمعنى جميعاً، ولا يجوز أن يكون المراد به بيان اللفظ دون المعنى، فإنّ هذا لا فائدة فيه، ولا يحصل به مقصود الرسالة، وبيان المعنى وحده بدون دليله وهو اللفظ الدال عليه ممتنع، فعُلم قطعاً أنّ المراد بيان اللفظ والمعنى.

واللّٰه تعالى أنزل كتابه -ألفاظه ومعانيه-، وأرسل رسوله ليبيّن اللفظ و المعنى، فكما أنّا نقطع ونتيقّن أنّه بيّن اللفظ، فكذلك نقطع ونتيقّن أنّه بيّن المعنى، بل كانت عنايته ببيان المعنى أشدّ من عنايته ببيان اللفظ، وهذا هو الذى ينبغى، فإنّ المعنى هو المقصود، وأمّا اللفظ فوسيلة إليه ودليل عليه، فكيف تكون عنايته بالوسيلة أهمّ من عنايته بالمقصود؟، وكيف نتيقّن بيانه

(1) الصواعق المرسلة لابن القيم (653/2 ـ 654).

(2) رواه البخارى فى صحيحه تعليقاً (503/13 ـ الفتح)، ووصله الحميدى فى النوادر، و الخطيب البغدادى وابن أبى عاصم فى كتاب الأدب، كما فى فتح البارى لابن حجر.

للوسيلة ولا نتيقّن بيانه للمقصود؟، وهل هذا إلا من أبين المحال؟

فإنْ جاز عليه ألا ّ يبيّن المراد من ألفاظ القرآن، جاز عليه ألا ّ يبيّن بعض ألفاظه، فلو كان المراد منها خلاف حقائقها وظواهرها ومدلولاتها وقد كتمه عن الأمة، ولم يبيّنه لها كان ذلك قدحاً فى رسالته وعِصمته، وفتحاً للزنادقة والملاحدة من الرافضة وإخوانهم بابَ كتمان بعض ما أنزل عليه، وهذا منافٍ للإيمان به وبرسالته))(1).

وقد أخبر الله -سبحانه وتعالى- أنه أكمل به الدّين وأتمّ به النعمة، وأمره أن يبلّغ البلاغ المبين كما فى قوله تعالى: اليَوْمَ أكمَلتُ لكُمْ دِينَكُمْ وَأتمَمْتُ عَليْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لكُمْ الإ ِسْلا َمَ دِيناً (2)، وقوله: يَا أيُّهَا الرّسُولُ بَلِّغْ مَا أنْزِلَ إِليْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لمْ تفعَلْ فَمَا بَلغْتَ رِسَالتَهُ وَاللّه ُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ (3).

((ومحال مع هذا أن يدع أهم ما خلق له الخلق وأرسلت به الرسل، وأنزلت به الكتب، ونصبت عليه القبلة، وأسست عليه الملة، وهو باب الإيمان به ومعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله ملتبساً مشتبهاً حقه بباطله، لم يتكلّم فيه بما هو الحق، بل تلكم بما ظاهره الباطل، والحق فى إخراجه عن ظاهره، وكيف يكون أفضل الرسل وأجلّ الكتب غير وافٍ بتعريف ذلك على أتمّ الوجوه، مبيّن له بأكمل البيان، موضح له غاية الإيضاح، مع شدّة حاجة النفوس إلى معرفته، ومع كونه أفضل ما اكتسبته النفوس، وأجلّ ما حصلته القلوب، ومن أبين المحال أن يكون أفضل الرسل قد علّم أمّته آداب البول، قبله وبعده ومعه، وآداب الوطء وآداب الطعام والشراب، ويترك أن يعلمهم ما يقولونه بألسنتهم وتعتقده قلوبهم فى ربهم ومعبودهم الذى معرفته غاية المعارف ، و الوصول إليه أجلّ المطالب، وعبادته وحده لا شريك له أقرب الوسائل، ويخبرهم فيه بما ظاهره باطل وإلحاد، ويحيلهم فى فهم ما أخبرهم به على

---

(1) الصواعق المرسلة لابن القيم (2/737 ـ 738).
(2) سورة المائدة، الآية: (3).
(3) سورة المائدة، الآية: (67).

مستكرهات التأويلات، ومستنكرات المجازات ، ثم يحيلهم فى معرفة الحق على ما تحكم به عقولهم وتوجبه آراؤهم، هذا وهو القائل: ((تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا ّ هالك))(1)، وهو القائل: ((ما بعث الله من نبى إلا ّ كان حقًا عليه أن يدلّ أمّته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شرّ ما يعلمه لهم))(2)، وقال أبو ذر: ((لقد توفى رسول الله وما طائر يقلّب جناحيه فى السماء إلا ذكرنا منه علماً))(3)، وقال عمر بن الخطاب : ((قام فينا رسول الله مقاماً، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم ، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه))، ذكره البخارى...(4).

فكيف يتوهّم مَن لله ولرسوله ولدينه فى قلبه وَقار أن يكون رسول الله قد أمسك عن بيان هذا الأمر العظيم ولم يتكلّم فيه بالصواب، بل تكلّم بما ظاهره خلاف الصواب؟ ، بل لا يتمّ الإيمان إلا باعتقاد أنّ بيان ذلك قد وقع من الرسول على أتمّ الوجوه، وأوضحه غاية الإيضاح، ولم يَدَع بعده لقائل مقالا ً ولا لمتأوّل تأويلا ً، ثم من المحال أن يكون خير الأمة وأفضلها وأعلمها وأسبقها إلى كلّ فضل وهدى ومعرفة قصروا فى هذا الباب فجفوا عنه أو تجاوزوا فغلوا فيه))(5).

ثمّ إنّ الله -سبحانه وتعالى- قد حثّ عباده على تدبّر القرآن وتعقّل آياته وفهم معانيه فى مواطن عديدة فى القرآن الكريم، فقال سبحانه: أَفَلا َ يَتَدَبّرُونَ القرْآنَ أمْ عَلَى قلوبٍ أقفَالهَا (6)، وقال تعالى: أَفَلا َ يَتَدَبّرُونَ

(1) رواه ابن ماجه (15/1)، وابن أبى عاصم فى السنة (رقم:48،49). وقال الألبانى: ((حديث صحيح)).

(2) رواه مسلم فى صحيحه (1472/3).

(3) رواه الإمام أحمد (153،162/5).

(4) (286/6 ـ الفتح).

(5) الصواعق المرسلة (157/1 ـ 160)، وانظر: أول الرسالة الحموية لابن تيمية (ص:7).

(6) سورة محمد، الآية: (24).

القرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ ِ لوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلا َفاً كثِيراً (1)، وقال تعالى: كِتَابٌ أنزَلنَاهُ إليْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَبّرُوا آيَاتِهِ (2)، وقال تعـالى: وَلقدْ ضَرَبْنَا لِلنّاسِ فِي هَذَا القرْآنِ مِن كلِّ مَثلٍ لعَلهُمْ يَتَذكّرُونَ (3)، وقال تعالى: إنّا أنزَلنَاهُ قرْآناً عَرَبِيّاً لعَلكُمْ تعْقِلونَ (4)، والآيات فى هذا المعنى كثيرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: ((فحضّ على تدبّره وفقهه وعقله والتذكر به والتفكر فيه، ولم يستثن من ذلك شيئاً؛ بل نصوص متعدّدة تصرّح بـ العموم فيه مثل قوله: أفَلا َ يَتَدَبّرُونَ القرْآنَ أمْ عَلى قلوبٍ أقفالهَا ، وقوله: أفَلا َ يَتَدَبّرُونَ القرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ ِ لوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلا َفاً كثِيراً ، ومعلوم أن نفى الاختلاف عنه لا يكون إلا ّ بتدبّره كلّه، وإلا ّ فتدبّر بعضه لا يوجب الحكم بنفى مخالفه ما لم يتدبّر لما تدبّر.

وقال على لما قيل له: هل ترك عندكم رسول الله شيئاً؟، فقال: ((لا، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتيه الله عبداً فى كتابه، وما فى هذه الصحيفة))(5). فأخبر أنّ الفهم فيه مختلف فى الأمة، والفهم أخصُ من العلم والحكم، قال الله تعالى: فَفَهّمْنَاهَا سُليْمَانَ وَكلا ّ آتيْنَا حُكماً وَعِلماً (6)، وقال النبى : ((رُبّ مبلغ أوعى من سامع))(7)، وقال: ((بلِغوا عنى ولو آية))(8)، وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائرالأ مة قد تكلموا فى جميع نصوص القرآن آيات الصفات وغيرها، وفسّروها بما يوافق دلالتها وبيانها، ورووا عن النبى أحاديث كثيرة توافق القرآن،

(1) سورة النساء، الآية: (82).
(2) سورة ص، الآية: (29).
(3) سورة الزمر، الآية: (27).
(4) سورة يوسف، الآية: (2).
(5) رواه البخارى (6/167 ـ الفتح)، ومسلم (1/87).
(6) سورة الأنبياء، الآية: (79).
(7) رواه البخارى (3/573 ـ 574 ـ الفتح).
(8) رواه البخارى (6/496 ـ الفتح).

وأئمة الصحابة فى هذا أعظم من غيرهم مثل عبد الله بن مسعود الذى كان يقول: ((لو أعلم أعلمَ بكتاب الله منى تبلغه آباط الإبل لأتيته))(1)، وعبد الله بن عباس الذى دعا له النبى وهو حبر الأمة وترجمان القرآن كانا هما وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات، ورواية لها عن النبى ، ومَن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا، وما فى التابعين أجلّ من أصحاب هذين السيّدين، بل وثالثهما فى عليّة التابعين من جنسهم أو قريب منهم، ومثلهما فى جلالته جلالة أصحاب زيد بن ثابت ؛ لكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به بل أخذوا عن غيره مثل عمر وابن عمر وابن عباس، ولو كان معانى هذه الآيات منفياً ومسكوتاً عنه لم يكن ربانيو الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنة أكثر كلاماً فيه.

ثم إنّ الصحابة نقلوا عن النبى أنّهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة، ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية، قال أبو عبدالرحمن السلمى: ((حدّثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنّهم كانوا إذا تعلّموا من النبى عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل))(2)، وكذلك الأئمة كانوا إذا سُئلوا عن شىء من ذلك لم ينفوا معناه بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى: الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى كيف استوى؟، فقال: ((الا ستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة))، وكذلك ربيعة قبله، وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول، فليس فى أهل السنة مَن ينكره ...))(3).

فهذه هى طريقة أئمة السلف أهل السنة والجماعة فى هذا الباب وفى

---

(1) رواه البخارى (47/9 ـ الفتح)، ومسلم (1912/4 ـ 1913).
(2) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (460/10).
(3) مجموع الفتاوى (307/13 ـ 309).

جميع أبواب الدين، وقد لخّص الإمام ابن القيم -رحمه الله- طريقتهم هذه بقوله: ((كان أئمة السلف وأتباعهم يذكرون الآيات فى هذا الباب، ثم يُتبعونها بالأحاديث الموافقة لها، كما فعل البخارى ومَن قبله ومَن بعده من المصنفين فى السنة، فإنّ الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهما يحتجون على صحة ما تضمّنته أحاديث النزول والرؤية والتكليم والوجه و اليدين والإتيان والمجىء بما فى القرآن، ويثبتون اتفاق دلالة القرآن والسنة عليها، وأنّهما من مشكاة واحدة، ولا ينكر ذلك مَن له أدنى معرفة وإيمان، وإنّما يحسن الاستدلال على معانى القرآن بما رواه الثقات عن الرسول ورثة الأنبياء، ثم يتبعون ذلك بما قاله الصحابة والتابعون أئمة الهدى.

وهل يخفى على ذى عقل سليم أنّ تفسير القرآن بهذه الطريق خير مما هو مأخوذ عن أئمة الضلال وشيوخ التجهّم والاعتزال كالمريسى والجبّائى والنظّام والعلا ّف وأضرابهم من أهل التفرّق والاختلاف الذين أحدثوا فى الإسلام ضلالات وبدعاً، وفرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، وتقطّعوا أمرهم بينهم كلُ حزب بما لديهم فرحون.

فإذا لم يجز تفسير القرآن وإثبات ما دلّ عليه، وحصول العلم واليقين بسنن رسول الله الصحيحة الثابتة، وكلام الصحابة وتابعيهم، أفيجوز أن يرجع فى معانى القرآن إلى تحريفات جهم وشيعته، وتأويلات العلا ّف و النظام والجبّائى والمرّيسى وعبد الجبار وأتباعهم من كلّ أعمى أعجمى القلب واللسان، بعيد عن السنة والقرآن، مغمور عند أهل العلم والإيمان؟))(1).

ويمكن أن نلخِّص ما تقـدّم فى ستة وجوه ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، فيها أوضح دلالة على أن المعنى معلوم ومطلوب من العباد العلم به:

((أحدها: أنّ العادة المطّرَدة التى جبل الله عليها بنى آدم توجب

(1) مختصر الصواعق (ص:456).

عنايتهم بالقرآن ـ المنزّل عليهم ـ لفظاً ومعنىً؛ بل أن يكون عنايتهم بالمعنى أوكد، فإنّه قد عُلم أنّه مَن قرأ كتاباً فى الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أو غير ذلك، فإنّه لا بدّ أن يكون راغباً فى فهمه، وتصوُّر معانيه، فكيف بمن قرؤوا كتاب الله تعالى المنزل إليهم، الذى به هداهم الله، وبه عرّفهم الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والرشاد والغى؟!.

فمن المعلوم أنّ رغبتهم فى فهمه وتصور معانيه أعظم الرغبات ؛ بل إذا سمع المتعلّم من العالم حديثاً فإنّه يرغب فى فهمه، فكيف بمن يسمعون كلام الله من المبلِّغ عنه؟!، بل ومن المعلوم أنّ رغبة الرسول فى تعريفهم معانى القرآن أعظم من رغبته فى تعريفهم حروفه، فإنّ معرفة الحروف بدون المعانى لا تحصل المقصود؛ إذ اللفظ إنما يُراد للمعنى.

الوجه الثانى: إنّ الله سبحانه وتعالى قد حضّهم على تدبّره وتعقّله واتباعه فى غير موضع ، كما قال تعالى: كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَبَّرُوا آيَاتِهِ (1)، وقال تعالى: أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (2)، وقال تعالى: أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ (3)، وقال تعالى: أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (4).

فإذا كان قد حضّ الكفار والمنافقين على تدبّره، علم أنّ معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها، فكيف لا يكون ذلك ممكناً للمؤمنين، وهذا يبيّن أنّ معانيه كانت معروفة بيّنة لهم.

الوجه الثالث: أنّه قال تعالى: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (5)، وقال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (6)، فبيّن أنّه أنزله عربيًّا؛

(1) سورة ص، الآية: (29).
(2) سورة محمد، الآية: (24).
(3) سورة المؤمنون، الآية: (68).
(4) سورة النساء، الآية: (82).
(5) سورة يوسف، الآية: (2).
(6) سورة الزخرف، الآية: (3).

لأنْ يعقلوا، والعقل لا يكون إلا ّ مع العلم بمعانيه.

الوجه الرابع: أنّـه ذمّ من لا يفهمـه فقـال تعالى : وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا َ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً (1) ، وقـال تعـالى : فَمَا لِهَؤُلا َءِ الْقَوْمِ لا َ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً (2)، فلو كان المؤمنون لا يفقهونه أيضاً لكانوا مشاركين للكفار والمنافقين فيما ذمّهم الله تعالى به.

الوجه الخامس: أنه ذمّ من لم يكن حظّه من السماع إلا سماع الصوت دون فهم المعنى واتباعه، فقال تعالى: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لا َ يَسْمَعُ إِلا ّ دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا َ يَعْقِلُونَ (3)، وقال تعالى: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا ّ كَالأَ نْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا ً (4)، وقال تعالى: وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّه ُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَآءَهُم (5)، وأمثال ذلك.

وهؤلاء المنافقون سمعوا صوت الرسول ولم يفهموا، وقالوا: ماذا قال آنفا؟، أي: الساعة، وهذا كلام من لم يفقه قوله، فقال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّه ُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَآءَهُم .

فمن جعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان غير عالمين بمعانى القرآن، جعلهم بمنزلة الكفار والمنافقين فيما ذمّهم الله تعالى عليه.

الوجه السادس: أنّ الصحابة -رضى الله- عنهم فسّروا للتابعين القرآن، كما قال مجاهد: ((عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، أقف عند كلّ

---

(1) سورة الإسراء، الآيات: (45،46).
(2) سورة النساء، الآية: (78).
(3) سورة البقرة، الآية: (171).
(4) سورة الفرقان، الآية: (44).
(5) سورة محمد، الآية: (16).

آية وأسأله عنها))[1].

ولهذا قال سفيان الثورى: ((إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به)). وكان ابن مسعود يقول: ((لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأ تيته))[2]. وكلٌ واحد من أصحاب ابن مسعود وابن عباس نقل عنه من التفسير ما لا يحصيه إلا الله ، والنقول بذلك عن الصحابة والتابعين ثابتة معروفة عند أهل العلم بها))[3].

ثانياً: قوله: ((والكيف غير معقول)) فإنّ العقول لا يمكن لها أن تدرك كيفية صفات البارى -سبحانه-، وقد نصّ الله على ذلك فى قوله تعالى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً [4].

قال الشيخ العلاّمة محمد الأمين الشنقيطى -رحمه الله-: ((فقوله: يُحِيطُونَ بِهِ فعل مضارع والفعل الصناعى الذى يسمى بالفعل المضارع وفعل الأمر والفعل الماضى ينحل عند النحويين عن مصدر وزمن كما قال ابن مالك فى الخلاصة[5]:

المصدر اسمُ ما سوى الزمان مِنْ مدلولى الفعل كأمْنٍ مِنْ أمِنْ

وقد حرّر علماء البلاغة فى مبحث الاستعارة التبعية أنه ينحل عن مصدر وزمن ونسبة، فالمصدر كامن فى مفهومه إجماعاً، فـ"يحيطون" فى مفهومها الإحاطة، فيتسلط النفى على المصدر الكامن فى الفعل فيكون معه كالنكرة المبنية على الفتح، فيصير المعنى: لا إحاطة للعلم البشرى برب السموات والأرض، فينفى جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها، فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن رب العالمين، فلا يشكل عليكم بعد هذا صفة نزول ولا مجىء ولا صفة يد ولا أصابع ولا عجب ولا ضحك؛ لأنّ هذه الصفات كلها من باب واحد، فما وصف

---

(1) رواه أبو نعيم فى الحلية (279/3 ـ 280) ومن طريقه الذهبى فى السير (456/4 ـ 457).
(2) رواه البخارى (47/9 ـ الفتح)، ومسلم (1912/4 ـ 1913).
(3) مجموع الفتاوى (157/5 ـ 159).
(4) سورة طه، الآية: (110).
(5) انظر: شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك (557/1).

اللّه به نفسه منها فهو حق، وهو لائق بكماله وجلاله لا يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، وما وُصف به المخلوقون منها فهو حق مناسب لعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وهذا الكلام الكثير أوضحه اللّه فى كلمتين لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ تنزيه بلا تعطيل، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ إيمان بلا تمثيل، فيجب من أول الآية وهو لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ التنزيه الكامل الذى ليس فيه تعطيل، ويلزم من قوله: وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ الإيمان بجميع الصفات الذى ليس فيه تمثيل، فأول الآية وآخرها إيمان، ومن عمل بـ التنزيه الذى فى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ والإيمان الذى فى قوله: وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ وقطع النظر عن إدراك الكنه والكيفية المنصوص فى قوله: وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا خرج سالماً))(1).

وروى أحمد وأبو داود وغيرهما عن معاوية بن أبى سفيان -رضى اللّه عنه-: ((أنّ النبى نهى عن الأغلوطات))(2).

قال عيسى بن يونس: ((والأغلوطات ما لا يحتاج إليه من كيف وكيف))(3).

وقال الخطابى: ((وفيه كراهية التعمّق فيما لا حاجة للإنسان إليه من المسائل ووجوب التوقف عمّا لا علم للمسؤول به))(4).

واللّه - تبارك وتعالى- لم يكلف عباده ولم يأمرهم بالبحث عن كيفية صفاته ولا أراد منهم ذلك، بل لم يجعل لهم سبيلاً إليه، ((ولهذا لمّا سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى: الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى قالوا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وكذلك قال ربيعة شيخ مالك قبله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول،

---

(1) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشنقيطى (ص:24،25).
(2) المسند (435/5)، وأبو داود (رقم:3656)، وقال الألبانى ـ حفظه اللّه ـ فى تخريج المصابيح (81/1): ((وسنده ضعيف، فيه عبد اللّه بن سعد وهو مجهول -كما قال الذهبى-)).
(3) رواه ابن بطة فى الإبانة (401/1).
(4) معالم السنن (250/5).

ومن الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا الإيمان.

فبيّن أنّ الاستواء معلوم، وأنّ كيفية ذلك مجهول، ومثل هذا يوجد كثيراً فى كلام السلف والأئمة، ينفون علم العباد بكيفية صفات الله، وأنه لا يعلم كيف الله إلا الله، فلا يعلم ما هو إلا هو، وقد قال النبى : ((لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك))، وهذا فى صحيح مسلم وغيره[1]، وقال فى الحديث الآخر : ((اللهم إنى أسألك بكلّ اسم هو لك سمّيت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علّمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك))، وهذا الحديث فى المسند وصحيح أبى حاتم[2]، وقد أخبر فيه أنّ لله من الأسماء ما استأثر به فى علم الغيب عنده))[3].

بل إنّ المخلوقَ عاجزٌ عن إدراك كنه كثير من المخلوقات وكيفيتها، فلأن يكون عن إدراك كنه صفات البارى وكيفيتها أعجز من باب أولى، قال رُسته: سمعتُ ابن مهدى يقول لفتى من ولد الأمير جعفر بن سليمان: ((بلغنى أنك تتكلم فى الرب، وتصفه وتشبهه. قال: نعم، نظرنا فلم نر من خلق الله شيئاً أحسن من الإنسان، فأخذ يتكلم فى الصفة، والقامة، فقال له: رُويدك يا بنىّ حتى نتكلم أول شىء فى المخلوق، فإن عجزنا عنه فنحن عن الخالق أعجز، أخبرنى عمّا حدّثنى شعبة، عن الشيبانى، عن سعيد بن جبير، عن عبد الله: لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى [4] قال: ((رأى جبريل له ستمائة جناح))[5]، فبقى الغلام ينظر، فقال: أنا أهوّن عليك صِفْ لى خلقاً له ثلاثة أجنحة، وركّب الجناح الثالث منه موضعاً حتى أعلم،

---

(1) صحيح مسلم (352/1).

(2) رواه أحمد (391/1)، والحاكم (509/1)، وقال الهيثمى فى المجمع (136/10): ((رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ... ورجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح غير الجهنى، وقد وثقه ابن حبان)).

(3) مجموع الفتاوى (58/3).

(4) سورة النجم، الآية: (18).

(5) رواه البخارى (313/6 ـ الفتح)، ومسلم (158/1) من طريق زر بن حُبيش، عن ابن مسعود .

قال: يا أبا سعيد عجزنا عن صفة المخلوق، فأشهدك أنى قد عجزتُ ورجعتُ))(1).

وقال أبو يحيى زكريا الساجى: حدّثنا المزنى: قال: قلت: ((إن كان أحدٌ يخرجُ ما فى ضميرى، وما تعلقَ به خاطرى من أمر التوحيد فالشافعى، فصِرتُ إليه وهو فى مسجد مصر، فلما جثوت بين يديه قلت : هجس فى ضميرى مسألة فى التوحيد، فعلمت أنّ أحداً لا يعلم علمك، فما الذى عندك؟، فغضب، ثم قال: أتدرى أين أنت؟ قلت: نعم، قال: هذا الموضع الذى أغرق الله فيه فرعون، أبلغك أنّ رسول الله أمر بالسؤال عن ذلك؟ ، قلت: لا، قال: هل تكلّم فيه الصحابة؟، قلت: لا، قال: تدرى كم نجماً فى السماء؟، قلت: لا، قال: فكوكبٌ منها تعرف جنسَه، طلوعَه، أفوله، ممّ خُلق؟، قلت: لا، قال: فشىء تراه بعينك من الخلق لستَ تعرفه، تتكلم فى علم خالقه؟! ، ثم سألنى عن مسألة فى الوضوء، فأخطأتُ فيها، ففرّعها على أربعة أوجه، فلم أُصب فى شىء منه، فقال: شىء تحتاج إليه فى اليوم خمس مرّات، تدعُ علمه، وتتكلف علمَ الخالق، إذا هجس فى ضميرك ذلك، فارجع إلى الله وإلى قوله تعالى: وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الآية(2) ، فاستدِلّ بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلف علمَ ما لم يبلغه عقلك، قال: فتبتُ))(3).

وقال القاضى أبو يعلى فى كتابه إبطال التأويلات: ((والله إنا لعاجزون كالون حائرون باهتون فى حدّ الروح التى فينا، وكيف تعرج كلّ ليلة إذا توفّاها بارئها، وكيف يرسلها؟، وكيف تستقلّ بعد الموت؟، وكيف حياة الشهيد المرزوق عند ربّه بعد قتله؟، وكيف حياة النبيين الآن؟، وكيف شاهد النبى أخاه موسى يصلى فى قبره قائماً، ثم رآه فى السماء السادسة وحاوره، وأشار عليه بمراجعة

---

(1) رواه اللالكائى فى الاعتقاد (530/3)، وذكره الذهبى فى سير أعلام النبلاء (196،197/9)، و اللفظ له.

(2) سورة البقرة، الآيتان: (163،164).

(3) سير أعلام النبلاء (31،32/10).

رب العالمين ، وطلب التخفيف منه على أمته؟، وكيف ناظر موسى أباه آدم، وحجّه آدم بالقدر السابق، وبأنّ اللوم بعد التوبة وقبولها لا فائدة فيه؟، وكذلك نعجز عن وصف هيأتنا فى الجنة، ووصف الحور العين، فكيف بنا إذا انتقلنا إلى الملائكة وذواتهم وكيفياتها؟، وأنّ بعضهم يمكنه أن يلتقم الدنيا فى لقمة مع رونقهم وحسنهم وصفاء جوهرهم النورانى، فالله أعلى وأعظم، وله المثل الأعلى والكمال المطلق، ولا مثل له أصلا آمَنّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأنّا مُسْلِمُونَ))(1).

وممّا يعين المسلم على قطع الطمع عن إدراك كيفية صفات البارى -سبحانه- اعتقاده وإيمانه بأنّ الله أكبر من كلّ شىء، فإذا اعتقد المسلم وآمن بأنّ الله -سبحانه وتعالى- أكبر من كلّ شىء، وأنّ كلّ شىء مهما كبر يصغر عند كبرياء الله وعظمته، علمَ من خلال ذلك علم اليقين أن كبرياءَ الربِّ وعظمتَه وجلاله وجماله وسائرَ أوصافه ونعوته أمرٌ لا يمكن أن تحيط به العقول أو تتصوّره الأفهام أو تدركه الأبصار والأفكار، فالله أعظم وأعظم من ذلك، بل إنّ العقولَ والأفهامَ عاجزةٌ عن أن تدركَ كثيراً من مخلوقات الرب -تبارك وتعالى-، فكيف بالرب -سبحانه-.

ثبت عن ابن مسعود أنه قال: ((بين السماء الدنيا والتى تليها خمسمائة عام، وبين كلّ سماء وسَمَاءٍ خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسىّ خمسمائة عام، وبين الكرسىّ والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شىء من أعمالكم))(2).

وروى عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله : ((ما السموات السبع فى

(1) نقله الذهبى، انظر: مختصر العلو (ص:270،271).

(2) رواه الدارمى فى الرد على الجهمية (ص:26،27)، والطبرانى فى الكبير (228/9)، وأبو الشيخ فى العظمة (689/2)، والبيهقى فى الأسماء والصفات (290/2)، وغيرهم.
قال الهيثمى فى المجمع (86/1): ((رجاله رجال الصحيح))، وصححه الذهبى فى العلو (ص:103 ـ مختصره)، وابن القيم فى اجتماع الجيوش (ص:100).
وقال الألبانى ـ حفظه الله ـ فى العلو: ((وسندهم جيّد)).

الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس))[1].

وقال أبو ذر : سمعت رسول الله يقول: ((ما الكرسي فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرى فلاة من الأرض))[2].

وليتأمّل المسلم فى عظم السماء بالنسبة إلى الأرض، وعظم الكرسىّ بالنسبة إلى السماء، وعِظم العرش بالنسبة إلى الكرسىّ، فإنّ العقولَ عاجزةٌ عن أن تدرك كمال هذه الأشياء أو أن تحيط بكُنْهِها وكيفيتها، فكيف بالأمر إذاً فى الخالق -سبحانه-، فهو أكبر وأجلُ من أن تعرف العقولُ كُنْهَ صفاته أو تدرك الأفهامُ كبرياءَه وعظمتَه، ولهذا جاءت السنةّ بالنهى عن التفكّر فى الله؛ لأنّ الأفكار والعقول لا تدرك كنه صفاته ، فالله أكبر من ذلك، قال : ((تفكّروا فى آلاء الله، ولا تفكروا فى الله))[3].

والتفكّرُ المأمور به هنا كما يبيّن ابن القيّم -رحمه الله - هو إحضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة[4]، وهذا يتضح بالمثال ، فالمسلم إذا أحضر فى قلبه كبر هذه المخلوقات من سموات وأرض وكرسى وعرش ونحو ذلك، ثم أحضر فى قلبه عجزه عن إدراك هذه الأشياء والإحاطة بها حصل له بذلك معرفة ثالثة وهى عظمة وكبرياء خالق هذه الأشياء وعجز العقول عن أن تدرك صفاته أو تحيط بنعوته -سبحانه-، يقول -سبحانه-: وَقُلِ الحَمْدُ للهِ الذى لَمْ يَتّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِى المُلْكِ

---

(1) رواه ابن جرير فى تفسيره (10/3)، وفى إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف، وزيد تابعي، فهو مرسل.

(2) رواه أبو نعيم فى الحلية (166/1)، وأبو الشيخ فى العظمة (648/2 ـ 649)، والبيهقى فى الأسماء والصفات (300/2 ـ 301)، وغيرهما، وقد صححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (رقم:109) بمجموع طرقه.

(3) رواه اللالكائى فى شرح الاعتقاد (525/3)، وأبو الشيخ فى العظمة (210/2) من حديث عمر بن الخطاب .

وإسناده ضعيف جدًا، لكن له شاهد من حديث أبى هريرة، وعبد الله بن سلام، وأبى ذر، وابن عباس، وقد حسّنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (رقم:1788) بمجموع طرقه.

(4) مفتاح دار السعادة (ص:181).

وَلَمْ يَكُن لهُ وَلِيٌّ مِنَ الذّلّ وَكَبِّرْهُ تكبِيراً (1) ، فالله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلا ً.

ثالثاً: وأمّا قوله: ((والإيمان به واجب)) أى: الاستواء الذى وصف الرب به نفسه فى كتابه، ووصفه به رسوله فى سنّته، وهكذا الشأن فى جميع الصفات الواردة فى الكتاب والسنة، يجب الإيمان بها وإمرارها كما جاءت دون تعرّض لها بردّ أو تحريف أو تكييف أو تمثيل أو غير ذلك ، ولهذا ندب الله عباده وحثّهم ورغّبهم فى مواطن كثيرة من القرآن الكريم على تعلم أسماء الرب وصفاته والإيمان بها ومعرفتها معرفة صحيحة سليمة.

يقول الله تعالى: وَللهِ الأ َسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الذِينَ يُلحِدُونَ فِي أسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كانوا يَعْمَلونَ (2)، وقال تعالى: قُلِ ادْعُوا الله َ أوْ ادْعُوا الرّحْمَنَ أيّاًمّا تدْعُوا فَلهُ الأ َسْمَاءُ الحُسْنَى (3)، وقال تعالى: هُوَ اللّه ُ الذِي لا َ إِلهَ إِلا ّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشّهَادَةِ هُوَ الرّحْمَنُ الرّحِيمُ هُوَ اللّه ُ الذِي لا َ إِلهَ إِلا ّ هُوَ المَلِكُ القدّوسُ السّلا َمُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبّارُ المُتَكبِّرُ سُبْحَانَ اللّه َ عَمّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللّه ُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لهُ الأ َسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لهُ مَا فِي السّمَوَاتِ وَالأ َرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (4)، وقال تعالى: اللّه ُ الذِي خَلقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأ َرْضَ مِثْلهُنّ يَتَنَزّلُ الأ َمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلمُوا أنّ الله َ عَلى كُلّ شَيْءٍ قدِيرٍ وَأنّ

(1) سورة الإسراء، الآية: (111).

(2) سورة الأعراف، الآية :(180).

(3) سورة الإسراء، الآية :(110).

(4) سورة الحشر، الآيات:(22 ـ 24).

الله ﴿ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ (1)، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (2) وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (3)، وقـال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (4)، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (5)، وقـال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (6)، وقـال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (7)، وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (8)، وقال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرِ﴾ (9)، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (10)، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ (11)، وقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (12)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فهذه الآيات وما فى معناها تدلّ أوضح الدلالة على أهمية الإيمان بأسماء الرب -تبارك وتعالى- الحسنى، وصفاته العظيمة، وأنّ ذلك من أصول الإيمان الراسخة، وأسسه العظيمة التى لا إيمان إلاّ بها، فمن جحدها أو جحد شيئاً منها فليس بمؤمـن، كـما قـال الله تعـالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، قال ذلك -

(1) سورة الطلاق، الآية :(12).
(2) سورة البقرة، الآية :(209).
(3) سورة البقرة، الآية :(231).
(4) سورة البقرة، الآية :(233).
(5) سورة البقرة، الآية :(235).
(6) سورة البقرة، الآية :(244).
(7) سورة البقرة، الآية :(267).
(8) سورة المائدة، الآية :(98).
(9) سورة الأنفال، الآية :(40).
(10) سورة البقرة، الآية :(194).
(11) سورة البقرة، الآية : (235).
(12) سورة محمد، الآية :(19).

سبحانه- فى شأن من ينكر اسمه الرحمن، فكيف بمن ينكر أسماءه جميعها أو صفاته كلها؟!.

وقال تعالى فى شأن من شك فى صفة واحدة: وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ [(1)]، فهؤلاء حصل منهم شك فى صفة العلم، فظنوا أنّ الله لا يعلم كثيراً من أعمالهم، فترتب على هذا الظنّ الفاسد والاعتقاد الباطل تردّيهم فى مهاوى الباطل وأودية الضلال، فكيف إذاً بمن عنده شك فى جميع الصفات أو غالبها؟!.

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن ابن مسعود : وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ الآية: ((كان رجلان من قريش وختَنٌ لهما من ثقيف أو رجلان من ثقيف وختَنٌ لهما من قريش فى بيت، فقال بعضهم: أترون أنّ الله يسمع حديثنا؟، قال بعضهم: يسمع بعضه، وقال بعضهم: لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله، فأنزلت: وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ))[(2)].

هذا لفظ البخارى، ولفظ مسلم: عن ابن مسعود قال: ((اجتمع عند البيت ثلا ثة نفر، قرشيّان وثقفى، أو ثقفيان وقرشى، قليلٌ فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟، وقال الآخر: يسمع إن جهرنا و لا يسمع إن أخفينا؟، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله : وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ))[(3)].

وقال -تعالى- فى شأن من لم ينزّه الله عمّا نزّه عنه نفسه مما لا يليق بجلاله

(1) سورة فصلت، الآيات: (22 ـ 24).
(2) صحيح البخارى (561/8 ـ الفتح)، ومسلم (2141/4).
(3) سورة فصلت، الآية: (22).

وكماله -سبحانه- من النقائص والعيوب: وَقَالُوا اتخَذَ الرّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكادُ السّمَوَاتُ يَتَفَطّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الأَرْضُ وَتَخِرُ الجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرّحْمَنِ أَنْ يَتّخِذَ وَلَدًا (1) فهؤلاء غلطوا فى صفة من صفات التنزيه ـ تنزيه الله عن الولد ـ فهو -سبحانه- الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحدٌ، وقد وصف الرب -سبحانه- غلطهم هذا بأنه إدّاً أى عظيماً بالغ العظمة والخطورة، تكاد السموات على اتّساعها أن تتفطّر منه، والأرض على ترامى أطرافها أن تنشقّ والجبال على قوّتها وصلابتها أن تخرّ هداً، كلُّ ذلك بسبب تفوّه هؤلاء بهذه المقالة الجائرة، المشتملة على هذا الغلط الفاحش فى صفة من صفات الرب سبحانه، فكيف الشّأن بمن كثرت أغلاطهم فى هذا الباب، وتنوّع باطلهم فيه؟!

وروى البخارى ومسلم عن أمّ المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- أنّ النبى بعث رجلاً على سريّة وكان يقرأ لأصحابه فى صلاته فيختم بـ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى فقال: ((سلوه لأىّ شىء يصنع ذلك؟، فسألوه فقال: لأنّها صفة الرحمن، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال النبى : أخبروه أنّ الله يحبُّه))(2).

وقد دلّ هذا الحديث على عظم شأن الإيمان بصفات الرب ومحبّتها و الحرص على تعلمها، وأنّ ذلك سببٌ عظيمٌ من أسباب دخول الجنة ونيل رضى الرب -سبحانه-.

وروى عبد الرزاق فى مصنّفه عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبى فى الصفات استنكاراً لذلك، فقال: ((ما فَرَقُ هؤلاء؟، يجدون رقّة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه))(3).

(1) سورة مريم، الآية: (88 ـ 92).

(2) صحيح البخارى (347/13 ـ الفتح)، وصحيح مسلم (557/1).

(3) المصنف (423/11)، وأورده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب فى كتابه التوحيد، وانظر شرحه فى تيسير العزيز الحميد (ص:578).

وصفات الله الواردة فى القرآن والسنة جميعها من المحكم، إلا ّ أنّ هذا الرجل لقلة علمه وضعف تفريقه اشتبه عليه الأمر فبادر إلى الاستنكار، فأنكر عليه ابن عباس -رضى الله عنهما- ذلك وأخبر أنّ هذا الاستنكار سبيل هلكه.

والشاهد من جميع ما تقدّم أنّ الإيمان بأسماء الرب وصفاته الواردة فى كتابه وسنة نبيّه محمد يجب الإيمان بها جميعها ، والإيمان بها داخل فى الإ يمان بالله بل هو ركن من أركان الإيمان بالله؛ لأنّ الإيمان بالله يقوم على أركان ثلاثة هى: الإيمان بوحدانية الله فى ربوبيته، والإيمان بوحدانيته فى ألوهيته، والإيمان بوحدانيته فى أسمائه وصفاته(1).

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فى مقدمة العقيدة الواسطية: ((ومن الإيمان بالله الإيمانُ بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأنّ الله -سبحانه - لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (2)، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته، ولا يكيّفون ولا يمثّلون صفاته بصفات خلقه ..؛ لأنه -سبحانه- لا سمى ّ له ولا كفء و لا ند ّله، ولا يقاس بخلقه -سبحانه وتعالى-، فإنه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلا ً وأحسن حديثاً من خلقه ، ثم رسله صادقون مصدّقون بخلاف الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، ولهذا قال: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلا َمٌ عَلَى المُرْسَلِينَ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ (3) ، فسبّح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص و العيب.

وهو -سبحانه- قد جمع فيما وصف وسمّى به نفسه بين النفى والإثبات، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم،

(1) وقد أفردتُ فى ذِكر هذه الأقسام وأدلتها والردّ على من أنكرها من غُلاة أهل الأهواء رسالة بعنوان: ((القول السديد فى الردّ على من أنكر تقسيم التوحيد)) وهى مطبوعة.
(2) سورة الشورى، الآية: (11).
(3) سورة الصافات، الآيات: (180 ـ 182).

صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين)).

رابعاً: وأما قوله : ((والسؤال عنه بدعة)) فلأنّ السؤال عنه والبحث فيه أمرٌ لم يشرع للعباد، بل دلت النصوص على عدم إمكان ذلك، وأنه لا سبيل إلى العلم به.

ولهذا فإنه من خاض فيه وبحث عن علمه يكون قد قال على الله بلا علم، وقد قال الله تعالى: أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (1).

وهذا من أعظم المحرّمات، وقد قال الله تعالى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ ما ظهر منها وما بطن والإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (2).

وقفا ما ليس له به علم، وقد قال الله تعالى: وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (3).

وتقدّم بعقله القاصر بين يدى الله ورسوله، وقد قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (4).

ثم إنه قد ورد فى القرآن والسنة النهى عن الأسئلة عن الأمور المغيبة ، وعن الأمور التى عفا الله عنها فلم يوجبها ولم يحرّمها، وكذلك عن سؤال التعنت والأغلوطات، قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ (5).

وقد ثبت فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى قال:

((دعونى ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرةُ سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما

(1) سورة البقرة، الآية: (80).
(2) سورة الأعراف، الآية: (33).
(3) سورة الإسراء، الآية: (36).
(4) سورة الحجرات، الآية: (1).
(5) سورة المائدة، الآية: (101).

استطعتم)) (1).

قال الشيخ العلا ّمة عبد الرحمن بن سعدى -رحمه الله- فى شرح هذا الحديث: ((ومما يدخل فى هذا الحديث السؤال عن كيفية صفات البارى؛ فإنّ الأ مر فى الصفات كلها كما قال الإمام مالك لمن سأله عن كيفية الاستواء على العرش؟، فقال: ((الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، و السؤال عنه بدعة))، فمن سأل عن كيفية علم الله، أو كيفية خلقه وتدبيره، قيل له: فكما أنّ ذات الله -تعالى- لا تشبهها الذوات، فصفاته لا تشبهها الصفات، فـ الخلق يعرفون الله ويعرفون ما تعرّف لهم به من صفاته وأفعاله، وأما كيفية ذلك، فلا يعلم تأويله إلا ّ الله)) (2).

فهذه بعض الشواهد لقول الإمام مالك -رحمه الله- ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة))، والمقصود هنا هو الإشارة إلى بعض الشواهد فقط، وإلا ّ فإنّ استقصاء ذلك يطول.

---

(1) رواه البخارى (251/13 ـ الفتح)، ومسلم (975/2).
(2) بهجة قلوب الأبرار (ص:219).

المبحث الثالث: ذكرُ نظائر هذا الأثر مما جاء عن السلف الصالح

إنّ لقول الإمام مالك -رحمه الله- هذا نظائرَ كثيرةً جداً عند أئمّة السلف وأهل العلم، وسوف أتناول فى هذا المبحث -إن شاء الله- ذكر بعض نظائره، لكن يحسن قبل ذلك الإش ـارةُ إلى أنّ هذا اللفظ المنقول عن مالك والمشهور عنه -رحمه الله- قد سبقه إليه شيخُه ربيعةُ الرأى، ويُروى قبل ذلك عن أمّ سلمة زوج النبى لكن من وجه لا يثبت عنها -رضى الله عنها-.

روى اللالكائى فى شرح الاعتقاد، والصابونى فى عقيدة السلف، وابن قدامة فى إثبات صفة العلوّ، والذهبى فى العلوّ من طريق أبى كنانة محمد بن الأشرس الورّاق، حدّثنا أبو عمير الحنفى، عن قُرّة بن خالد عن الحسن، عن أمِّه، عن أمّ سلمة فى قوله تعالى: الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى قالت: ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر))(1).

قال شيخ الإسلام: ((وقد رُوى هذا الجواب عن أمّ سلمة -رضى الله عنها- موقوفاً ومرفوعاً، ولكن ليس إسناده مما يُعتمد عليه))(2).

وقال الذهبى: ((هذا القول محفوظ عن جماعة كربيعة الرأى، ومالك الإمام، وأبى جعفر الترمذى، فأما عن أم سلمة فلا يصح؛ لأنّ أبا كنانة ليس بثقة، وأبو عمير لا أعرفه))(3).

وقال الذهبى فى ذيل ديوان الضعفاء والمتروكين عن ابن الأشرس: ((له مناكير، ليس بشىء))(4).

أما أثرُ ربيعة الرأى فقد رواه اللالكائى فى شرح الاعتقاد وابن قدامة فى العلوّ من طريق يحيى بن آدم عن ابن عيينة قال: سئل ربيعة عن قوله: الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى كيف استوى؟، قال: ((الاستواء غير مجهول ، والكيف

(1) شرح الاعتقاد للالكائى (397/3)، عقيدة السلف للصابونى (ص:37)، إثبات صفة العلوّ لابن قدامة (ص:158)، صفة العلوّ للذهبى (ص:65).
(2) مجموع الفتاوى (365/5).
(3) العلوّ للذهبى (ص:65).
(4) ذيل ديوان الضعفاء والمتروكين (ص:58).

غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق))[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((روى الخلال بإسناد كلهم ثقات عن سفيان بن عيينة قال: سئل ربيعة بن أبى عبد الرحمن ..)) فذكره[2].

ورواه الذهبى فى العلوّ من طريق النجّاد قال: حدّثنا معاذ بن المثنى حدّثنى محمد بن بشر حدّثنا سفيان [وهو الثورى] قال: ((كنت عند ربيعة بن أبى عبدالرحمن ...)) فذكره[3].

قال الألبانى: ((وهو صحيح))[4].

ورواه البيهقى فى الأسماء والصفات من طريق عبد الله بن صالح بن مسلم قال: سئل ربيعة الرأى عن قول الله -تبارك وتعالى-: الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى كيف استوى؟، قال: ((الكيف مجهول، والاستواء غير معقول، ويجب علىّ وعليكم الإيمان بذلك كلِّه))[5].

هكذا لفظه: ((الكيف مجهول، والاستواء غير معقول))، وهو مخالف للفظ السابق فى الطريقين المتقدّمين، وفى إسناده عبد الله بن صالح بن مسلم وهو أبو صالح المصرى كاتب الليث، قال الحافظ فى التقريب: ((صدوق كثير الغلط، ثبت فى كتابه، وكانت فيه غفلة)).

ثم هو أيضاً لم يدرك ربيعة ، فقد كان مولده سنة سبع وثلاثين ومائة كما فى ترجمته فى تهذيب الكمال[6]، وكانت وفاة ربيعة الرأى على الصحيح كما فى التقريب لابن حجر[7] سنة ست وثلاثين ومائة.

أورد هذه الآثار الثلاثة ـ أعنى أثر أم سلمة وربيعة ومالك ـ ابنُ قدامة فى كتابه ((ذمّ التأويل)) ثم قال: ((وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى واللفظ،

(1) شرح الاعتقاد اللالكائى (398/3)، إثبات صفة العلوّ لابن قدامة (ص:164).
(2) مجموع الفتاوى (40/5).
(3) العلوّ (ص:98).
(4) مختصر العلوّ (ص:97).
(5) الأسماء والصفات (306،307/2).
(6) (107/15).
(7) (ص:322).

فمن المحتمل أن يكون ربيعة ومالك بلغهما قول أم سلمة فاقتديا بها وقالا مثل قولها لصحته وحسنه وكونه قول إحدى أزواج النبى ، ومن المحتمل أن يكون الله تعالى وفقهما للصواب وألهمهما من القول السديد مثل ما ألهمها))(1).

وقد تقدّم أنّ أثر أم سلمة -رضى الله عنها- لم يثبت عنها، فلم يبق إلا ّ الاحتمال الثانى وهو أنّ الله وفقهما للصواب وألهمهما هذا القول السديد ، وربما أنّ مالكاً -رحمه الله- سمعه من شيخه فاقتدى به، أو أنه لم يسمعه منه ولكن وُفِّق إليه كما وُفِّق إليه شيخه.

وذكر الذهبى فى كتابه الأربعين أنّ هذا الأثر يروى أيضاً عن وهب بن منبِّه(2)، لكن لم أقف عليه فى مصادر التخريج.

ويشبه تماماً قولَ ربيعة ومالك هذا قولُ أبى جعفر الترمذى (ت295هـ) -رحمه الله- عندما سُئل عن صفة النزول.

قال الخطيب البغدادى: حدّثنى الحسن بن أبى طالب قال: نبّأنا أبو الحسن منصور بن محمد بن منصور القزاز قال: سمعت أبا الطيب أحمد بن عثمان السمسار والد أبى حفص بن شاهين يقول: حضرت عند أبى جعفر الترمذى فسأله سائل عن حديث النبى : ((إنّ الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا ...))، فالنزول كيف يكون يبقى فوقه علوّ؟!، فقال أبو جعفر الترمذى: ((النزول معقول، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة))))(3).

وأورده الذهبى فى العلوّ ، قال الألبانى -حفظه الله-: ((وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات ...))(4).

(1) ذم التأويل (ص:26).
(2) الأربعين (ص:80 ضمن مجموع الرسائل الست له).
(3) تاريخ بغداد (365/1).
(4) مختصر العلوّ (ص:232).

وعلّق الذهبىُ على هذا الأثر بقوله : ((صدق فقيهُ بغداد وعالمُها فى زمانه؛ إذ السؤال عن النزول ما هو؟ عيٌ؛ لأنّه إنما يكون السؤال عن كلمة غريبة فى اللغة، وإلا ّ فالنزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عباراتٌ جليّةٌ واضحةٌ للسامع، فإذا اتصف بها من ليس كمثله شىء، فالصفة تابعةٌ للموصوف، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر، وكان هذا الترمذى من بحور العلم ومن العباد الورعين. مات سنة خمس وتسعين ومائتين))(1).

ويشبه هذا الأثر إلى حدٍ ما ما أجاب به سهل بن عبد الله التسترى (ت 283هـ) عندما سُئل عن القدر.

قال الحافظ اللالكائى: أخبرنا محمد بن إبراهيم النجيرمى، قال: ثنا أبو عبيد محمد بن علىّ بن حيدرة ، قال: ثنا أبو هارون الأ ُبُلِّى وكان ممن صحب سهل بن عبد الله، وكان رجلا ً صالحاً، وكان يُقرئنا القرآن فى المسجد الجامع، قال: سُئل سهل بن عبد الله عن القدر، فقال: ((الإيمان بـ القدر فرضٌ ، والتكذيب به كفرٌ، والكلام فيه بدعةٌ، والسكوت عنه سنةٌ))(2).

ثم إنّ لأهل العلم أقوالا ً كثيرةً جداً مماثلة لقول الإمام مالك هذا، وتؤدّى إلى مقصوده، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: ((وهكذا سائر الأئمّة قولهم يوافق قول مالك ...))(3).

ومن أقوال السلف المماثلة لقول مالك ما يلى:

1 ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((روى أبو بكر الخلال فى كتاب السنة عن الأوزاعى قال: سئل مكحول والزهرى عن تفسير الأحاديث فقالا: ((أمرّوها كما جاءت))، وروى أيضاً عن الوليد ابن مسلم قال: سألت مالك ابن أنس وسفيان الثورى والليث بن سعد والأوزاعى عن الأخبار التى جاءت فى الصفات ، فقالوا: ((أمرُوها كما جاءت))، ـ وفى رواية قالوا:

(1) مختصر العلوّ (ص:231).
(2) شرح الاعتقاد (711/4).
(3) مجموع الفتاوى (365/5).

((أمرُوها كما جاءت بلا كيف)) ـ وقولهم -رضى الله عنهم-: ((أمرّوها كما جاءت)) ردٌ على المعطِلة، وقولهم: ((بلا كيف)) ردٌ على الممثِلة، والزهرى ومكحول هما أعلم التابعين فى زمانهم، والأربعة الباقون أئمة الدنيا فى عصر تابعى التابعين، ومن طبقتهم حماد بن زيد وحماد بن سلمة وأمثالهما ...)).

وأورد أثر مالك وربيعة ثم قال: ((فقول ربيعة ومالك ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب)) موافق لقول الباقين: ((أمرُوها كما جاءت بلا كيف))، فإنما نفوا علم الكيفية ولم ينفوا حقيقة الصفة، ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرّد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول))، ولما قالوا: ((أمرّوها كما جاءت بلا كيف))، فإنّ الاستواء حينئذ لا يكون معلوماً ، بل مجهول بمنزلة حروف المعجم، وأيضاً فإته لا يحتاج إلى نفى علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى، إنما يحتاج إلى نفى علم الكيفية إذا أثبتت الصفات.

وأيضاً فإنّ من ينفى الصفات الخبرية أو الصفات مطلقاً لا يحتاج إلى أن يقول: ((بلا كيف))، فمن قال: إنّ الله ليس على العرش، لا يحتاج أن يقول: بلا كيف، فلو كان مذهب السلف نفى الصفات فى نفس الأمر لما ق الوا: بلا كيف.

وأيضاً فقولهم: ((أمرّوها كما جاءت)) يقتضى إبقاء دلالتها على ما هى عليه، فإنها جاءت ألفاظاً دالة على معانى، فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال أمرّوا لفظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير مراد، أو: أمرّوا لفظها مع اعتقاد أنّ الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقةً، وحينئذ تكون قد أُمرّت كما جاءت، ولا يقال حينئذٍ: ((بلا كيف))؛ إذ نفى الكيف عما ليس بثابت لغو من القول.

وروى الأثرم فى السنة وأبو عبد الله بن بطة فى الإبانة وأبو عمرو

الطلمنكى وغيرهم بإسناد صحيح عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون ـ وهو أحد أئمة المدينة الثلاثة الذين هم: مالك بن أنس وابن الماجشون وابن أبى ذئب ـ وقد سئل عما جحدت به الجهمية: ((أما بعد فقد فهمتُ ما سألتَ فيما تتابعت الجهمية ومن خلفها فى صفة الرب العظيم الذى فاقت عظمته الوصف والتدبر، وكلّت الألسن عن تفسير صفته، وانحصرت العقول دون معرفة قدرته، وردت عظمته العقول فلم تجد مساغاً فرجعت خاسئة وهى حسيرة، وإنما أُمروا بالنظر والتفكير، فيما خلق بِ التقدير، وإنما يقال: ((كيف)) لمن لم يكن مرّة ثم كان، فأما الذى لا يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل، فإنه لا يعلم كيف هو إلا ّ هو، وكيف يعرف قدر من لم يبدأ، ومن لا يموت ولا يبلى؟، وكيف يكون لصفته شىء منه حدّ أو منتهى يعرفه عارف، أو يحدُ قدره واصف؟، على أنه الحق المبين لا حق أحق منه ولا شىء أبين منه، الدليل على عجز العقول عن تحقيق صفته عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه، لا تكاد تراه صغراً، يحول ويزول، ولا يُرى له سمع ولا بصر، لما يتقلب به ويحتال من عقله أعضل بك وأخفى عليك مما ظهر من سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين، وخالقهم، وسيّد السادة، وربُهم، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير.

اعرف -رحمك الله- غناك عن تكلف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها، إذا لم تعرف قدر ما وصف فما تكلفك علم ما لم يصف؟!، هل تستدل بذلك على شىء من طاعته؟، أو تزجر به عن شىء من معصيته؟ ...)).

إلى أن قال: ((فما وصف الله من نفسه فسماه على لسان رسوله سميناه كما سماه، ولم تتكلف منه صفة ما سواه، لا هذا ولا هذا، ولا نجحد ما وصف، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف ...))، إلى آخر كلامه -رحمه الله-

(1).

2 ـ وقال إسماعيل بن على الأبلى: سمعت سهل بن عبد الله بالبصرة سنة ثمانين ومئتين يقول: ((العقل وحده لا يدل على قديم أزلىّ فوق عرش محدث، نصبه الحق دلالة وعلماً لنا لتهتدى القلوب به إليه ولا تتجاوزه، ولم يكلف القلوبَ علم ماهية هُويّته، فلا كيف لاستوائه عليه، ولا يجوز أن يُقال: كيف الاستواء لمن أوجد الاستواء؟ ، وإنّما على المؤمن الرضى والتسليم لقول النبى : ((إنّه على عرشه))، وقال: إنّما سُمى الزنديق زنديقاً؛ لأنّه وَزَن دِقّ الكلام بمخبول عقله وقياس هوى طبعه، وترك الأثر والاقتداء بالسنة، وتأوّل القرآن بالهوى، فسبحان من لا تكيّفه الأوهام، فى كلام نحو هذا))(2).

3 ـ وقال الإمام أبو حنيفة فى كتابه الفقه الأكبر: ((فما ذكره الله تعالى فى القرآن من ذِكر الوجه واليد والنفس فهو له صفاتٌ بلا كيف، ولا يُقال إنّ يده قدرته أو نعمته؛ لأنّ فيه إبطال الصفة، هو قول أهل القدر والا عتزال، ولكن يده صفتُه بلا كيف، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف))(3).

4 ـ وروى الأثرم فى كتاب السنة حدّثنا إبراهيم بن الحارث يعنى العبادى، حدّثنى الليث بن يحيى، قال: سمعت إبراهيم بن الأشعث، قال أبو بكر صاحب الفضيل: سمعت الفضيل بن عياض يقول: ((ليس لنا أن نتوهّم فى الله كيف وكيف؛ لأنّ الله وصف نفسه فأبلغ فقال: قُلْ هُوَ اللَّه ُ أَحَدٌ اللَّه ُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، فلا صفة أبلغ مما وصف الله به نفسه، وكذا النزول والضحك والمباهاة والاطلاع، كما شاء أن

(1) الحموية (ص:24 ـ 27).

(2) سير أعلام النبلاء (331،332/13)، وأورده الذهبى فى العلو (ص:220 ـ مختصره)، لكن بلفظ: ((... لأنّه لا يجوز لمؤمن أن يقول: كيف الاستواء، لمن خلق الاستواء ...))، وفيه إشكالٌ ظاهرٌ، إلا ّ إن أريد بالاستواء الثانى استواء المخلوق.

(3) شرح الفقه الأكبر لملا على القارى (ص36،37).

ينزل، وكما شاء أن يباهى وكما شاء أن يطلع، وكما شاء أن يضحك، فليس لنا أن نتوهّم كيف وكيف، وإذا قال لك الجهمى: أنا أكفر برب ينزل عن مكانه، فقل أنت: أنا أومن برب يفعل ما يشاء))(1).

5 ـ وعن سلمويه بن عاصم قاضى هجر قال: ((كتب بشر المريسى إلى منصور بن عمار يسأله عن قول الله تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى : كيف استوى؟، فكتب إليه: استواؤه غير محدود، والجواب فيه تكلف، ومسألتك عن ذلك بدعة، والإيمان بجملة ذلك واجب، قال الله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ))(2).

6 ـ وسئل أبو على الحسين بن الفضل البجلى عن الاستواء وقيل له: كيف استوى على عرشه؟، فقال: ((أنا لا أعرف من أنباء الغيب إلا مقدار ما كشف لنا، وقد أعلمنا جلّ ذكره اته استوى على عرشه ولم يخبرنا كيف استوى))(3).

7 ـ وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى : ((أما الكلام فى الصفات، فإنّ ما روى منها فى السنن الصحاح، مذهبُ السلف إثباتُها وإجراؤها على ظواهرها، ونفى الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قومٌ فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم من المثبتين، فخرجوا فى ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، والقصدُ إنّما هو سلوك الطريقة المتوسّطة بين الأمرين ، ودينُ الله تعالى بين الغالى فيه و المقصِّر عنه، والأصلُ فى هذا أنّ الكلام فى الصفات فرعُ الكلام فى الذات، ويُحتذى فى ذلك حذوه ومثاله، فإذا كان معلوماً أنّ إثبات ربِّ العالمين إنّما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا: لله يدٌ وسمعٌ وبصرٌ، فإنما هى صفاتٌ أثبتها الله لنفسه ، ولا نقول: إنّ معنى اليد القدرة، ولا إنّ معنى السمع والبصر العلم، ولا نقول: إنّها

(1) ذكره ابن تيمية فى درء التعارض (23،24/2)، وابن القيم فى اجتماع الجيوش الإسلامية (ص:105،106).

(2) رواه الخطيب فى تاريخه (75،76/13)، وأورده الذهبى فى السير (97/9)، وفى العلو (ص161 ـ مختصره)، وضعّف إسناده الألبانى.

(3) رواه الصابونى فى عقيدة السلف (ص:40).

جوارح، ولا نشبّهها بالأيدى والأسماع والأبصار التى هى جوارحُ وأدوات للفعل، ونقول: إنّما وجب إثباتها؛ لأنّ التوقيف ورد بها، ووجب نفى التشبيه عنها لقوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ))(1).

8 ـ وقال أبو منصور معمر بن أحمد: ((ولما رأيت غربة السنة، وكثرة الحوادث واتباع الأهواء أحببت أن أوصى أصحابى وسائر المسلمين بوصية من السنة وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر، وأهل المعرفة والتصوف من السلف المتقدّمين، والبقية من المتأخرين ... ـ فذكر أموراً- ثم قال : وأنّ الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، فالاستواء معقول، والكيف فيه مجهول، والإيمان به واجب، والإنكار له كفر، وأنّه -جلّ جلاله- مستوٍ على عرشه بلا كيف، وأنّه -جلّ جلاله- بائنٌ من خلقه والخلق بائنون منه، فلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة؛ لأنّه الفرد البائن من خلقه، الواحد الغنى عن الخلق، علمه بكلّ مكان، ولا يخلو من علمه مكان))(2).

9 ـ وقال ابن قتيبة: ((وعدلُ القول فى هذه الأخبار أن نؤمن بما صحّ منها بنقل الثقات لها، فنؤمن بالرؤية والتجلى، وأنّه يعجب وينزل إلى السماء الدنيا، وأنّه على العرش استوى وبالنفس واليدين من غير أن نقول فى ذلك بكيفية أو بحدّ أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت، فنرجو أن نكون فى ذلك القول والعقد على سبيل النجاة غداً -إن شاء الله تعالى-))(3).

والآثار فى هذا المعنى عن السلف مستفيضة ، وممّا روى فى هذا المعنى -لكن لم أقف له على إسناد- ما روى عن الشافعى أنّه قال -لما سئل عن الاستواء-: ((آمنت بلا تشبيه، وصدّقت بلا تمثيل، واتهمت نفسى فى الإدراك، وأمسكت عن الخوض غاية الإمساك)).

وعن أحمد أنّه قال: ((استوى كما ذكر لا كما يخطر للبشر))(4)، والله أعلم.

---

(1) سير أعلام النبلاء (284/18).

(2) ذكره التيمى فى الحجة (232/1)، ونقله شيخ الإسلام ابن تيمية كما فى الفتاوى (191/5).

(3) الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة (ص:53).

(4) أوردهما مرعى الكرمى فى أقاويل الثقات (ص:121)، والسفارينى فى لوامع الأنوار

ومن جميل ما قيل فى هذا شعراً قول الناظم:

((على عرشه الرحمن سبحانه استوى كما أخـبر القرآن والمصطفـى روى

وذاك اســـتـواء لائـــق بـجــلالـــــه وأبرأ مـن قـولى له العرش قد حـوى

فمن قــال مثلَ الفــلــك كـــان اســتواؤه على جبل الجودى من شاهق هـوى

ومــن يـتـبـع مـا قــد تــشــابــــه يـبـتـغـى بـه فـتـنـة أو يـبـغِ تـأويـلـــه غـــوى

فـلم أقل : اسـتـولى ولــســت مــكــلّـفــاً بـتـأويـلــه كـلا ولـــم أقـــل احـتــوى

ومن قــال لى كيف استوى؟، لا أجيبـه بشىء سوى أنى أقول له: استوى))(١).

---

(1) انظر: الكواكب الدرية لابن مانع (ص:28).

(200/1).

المبحث الرابع: ذكر كلام أهل العلم في التنويه بهذا الأثر وتأكيدهم على أهميته، وجعله قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات

لا ريب في صحة هذا الأثر وثبوته عن إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس -رحمه الله-، وحسنه وقوّة دلالته، وقد تلقّاه أهل العلم بالقبول، واستحسنوه واستجادوه ، واعتبروه من أحسن جواب وأنبل جواب قيل في هذه المسألة، وجعلوه قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات تطبق في جميع الصفات، فيُقال في كلّ صفة ما قاله الإمام مالك -رحمه الله- في صفة الاستواء، وقد سبق أن مرّ معنا في مبحث مستقلّ تخريج هذا الأثر وبيان ثبوته عن الإمام مالك -رحمه الله-.

وسأتناول في هذا المبحث أمرين:

1ـ ذكر بعض النقول عن أهل العلم في استحسانه والثناء عليه.

2ـ ذكر بعض النقـول عنهم في عدِّهم له قاعدة من قواعد توحيد الأسماء و الصفات.

أولاً: أما كلام أهل العلم في استحسانه واستجادته وتلقيه بالقبول فكثير جدًا ، ولهذا لا يخلو في الغالب كتاب من كتب العقيدة لأهل السنة و الجماعة من ذكر هذا الأثر والاستشهاد به والثناء عليه.

ومما جاء عن أهل العلم في الثناء على هذا الأثر واستحسانه ما يلي:

1 ـ قال الإمام أبو سعيد الدارمي عقِب روايته لهذا الأثر في كتابه الرد على الجهمية: ((وصدق مالك، لا يُعقل منه كيف، ولا يُجهل منه الاستواء، والقرآن ينطق ببعض ذلك في غير آية))(1).

(1) الرد على الجهمية للدارمي (ص:56).

2 ـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((وقول مالك من أنبل جواب وقع فى هذه المسألة وأشدّه استيعاباً؛ لأنّ فيه نبذ التكييف وإثبات الاستواء المعقول، وقد ائتمّ أهل العلم بقوله واستجادوه واستحسنوه))(1).

وقال أيضاً: ((وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول، فليس فى أهل السنة من ينكره))(2).

وقال أيضاً: ((فإنّه قد رُوى من غير وجه أنّ سائلاً سأل مالكاً عن قوله: الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى كيف استوى؟، فأطرق مالك حتى علاه الرحضاء ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، و السؤال عنه بدعة، وما أراك إلا رجل سوء، ثم أمر به فأُخرج، ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك، وقد رُوى هذا الجواب عن أمّ سلمة -رضى الله عنها- موقوفاً ومرفوعاً، ولكن ليس إسناده مما يُعتمد عليه، وهكذا سائر الأئمة قولهم يُوافق قول مالك فى أنّا لا نعلم كيفية استوائه كما لا نعلم كيفية ذاته، ولكن نعلم المعنى الذى دلّ عليه الخطاب، فنعلم معنى الاستواء، ولا نعلم كيفيته، وكذلك نعلم معنى النزول ولا نعلم كيفيته، ونعلم معنى السمع والبصر والعلم والقدرة، ولا نعلم كيفية ذلك، ونعلم معنى الرحمة والغضب والرضا والفرح والضحك ولا نعلم كيفية ذلك))(3).

3 ـ وقال الذهبى -رحمه الله-: ((هذا ثابت عن مالك، وتقدّم نحوه عن ربيعة شيخ مالك، وهو قول أهل السنة قاطبة : أنّ كيفية الاستواء لا نعقلها ، بل نجهلها، وأنّ استواءه معلوم كما أخبر فى كتابه، وأنّه كما يليق به، ولا نتعمّق ولا نتحذلق، ولا نخوض فى لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً، بل نسكت ونقف كما وقف السلف، ونعلم أنّه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه، ونعلم يقيناً مع ذلك أنّ الله -جلّ جلاله- لا مثل له فى صفاته، ولا فى استوائه، ولا فى نزوله،

(1) مجموع الفتاوى (520/5)، شرح حديث النزول (ص:391)، ومن المحتمل أن يكون من كلام أبى عمرو الطلمنكى.

(2) مجموع الفتاوى (309/13).

(3) مجموع الفتاوى (365/5).

سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً))(1).

4 ـ وقال أبو المعالى الجوينى فى الرسالة النظامية فى الأركان الإسلامية: ((ومما استحسن من كلام مالك أنّه سئل عن قوله تعالى: الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى : كيف استوى؟، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فلتجرَ آية الاستواء و المجىء وقوله: لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ (2)، وقوله: وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ (3)، وقوله: تجْرِى بِأَعْيُنِنَا (4)، وما صح من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا))(5).

5 ـ وقال الإمام البغوى فى تفسيره: ((فأمّا أهل السنة يقولون: الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويكِلُ العلم فيه إلى الله ، وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: الرّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى : كيف استوى؟، فأطرق رأسه مليّا وعلاه الرّحضاء ثم قال: ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ّ ضالا ّ، ثم أمر به فأخرج، وروى عن سفيان الثورى، والأوزاعى، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، وغيرهم من علماء السنة فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهات: أمِرُّها كما جاءت بلا كيف))(6).

6 ـ وقال ملا على القارى: ((ونِعم ما قال الإمام مالك -رحمه الله- حيث سُئل عن ذلك الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة،

---

(1) مختصر العلو (ص:141،142).

(2) سورة ص، الآية: (75).

(3) سورة الرحمن، الآية: (27).

(4) سورة القمر، الآية: (14).

(5) العقيدة النظامية (ص:25)، ونقله ابن القيم فى إعلام الموقعين (246،247/4).
وإن كان أبو المعالى قد مال فى رسالته هذه إلى تفويض المعانى، وهو آخر قوليه وظنّ أنّ ذلك هو مذهب السلف كمالك وغيره، انظر: درء التعارض لابن تيمية (249/5).

(6) معالم التنزيل (165/2).

والإيمان به واجب، وهذه طريقة السلف وهى أسلم، والله أعلم))(1).

ومع ذلك فقد قال بعض جُهّال المعاصرين بعد محاولة فاشلة لتضعيف هذا الأثر: ((وعلى أيّ فالقضية تبقى رأياً من عالم غير ملزم للناس ولا قاطع للجدل والفهم، ولا محدد لفهم واحد، بل لكلّ متّسع فيما يرى))(2).

فالجهمى له متسع، والمعتزلى له متسع، والأشعرى له متّسع، فالله وحده المستعان.

ثانياً: أما عدّ أهل العلم لهذا الأثر قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات فمن ذلك:

1 ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((فإذا قال السائل: كيف استوى على العرش؟، قيل له كما قال ربيعة ومالك وغيرهما -رضى الله عنهما-: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة؛ لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه.

وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربّنا إلى السماء الدنيا؟، قيل له: كيف هو؟، فإذا قال: لا أعلم كيفيته، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله؛ إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له وتابع له، فكيف تطالبنى بالعلم بكيفية سمعه وبصره، وتكليمه، واستوائه ونزوله، وأنت لا تعلم كيفية ذاته))؟!(3).

وقال أيضاً: ((ومن أوّل الاستواء بالاستلاء فقد أجاب بغير ما أجاب به مالك وسلك غير سبيله، وهذا الجواب من مالك -رحمه الله- فى الاستواء شافٍ كافٍ فى جميع الصفات مثل: النزول والمجىء ، واليد، والوجه، وغيرها، فيقال فى مثل النزول : النزول، معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وهكذا يُقال فى سائر الصفات؛ إذ هى بمثابة الاستواء الوارد به

(1) شرح الفقه الأكبر (ص38) وإن كان قد فهم منه تفويض المعنى على طريقة المؤوّلة.
(2) انظر: هامش كتاب ((رسائل محمد نسيب الرفاعى -رحمه الله-)) بقلم: حسان عبدالمنان، طبع المكتب الإسلامى، الأولى، (1414هـ).
(3) مجموع الفتاوى (25/3).

الكتاب والسنة))(1).

2 ـ وقال العلا ّمة ابن القيم رحمه الله: ((وهذا الجواب من مالك شافٍ، عامّ في جميع مسائل الصفات، فمن سأل عن قوله: إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (2) كيف يسمع ويرى؟، أجيب بهذا الجواب بعينه، فقيل له: السمع والبصر معلوم، والكيف غير معقول، وكذلك من سأل عن العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والنزول، والغضب، والرضى، والرحمة، والضحك، وغير ذلك، فمعانيها كلها مفهومة، وأما كيفيتها فغير معقولة؛ إذ تعقّل الكيفية فرع العلم بكيفية الذات وكنهها، فإذا كان ذلك غير معقول للبشر، فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟!.

والعصمة النافعة في هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل تثبِتُ له الأسماء والصفات، وتنفِي عنه مشابهة المخلوقات.

فيكون إثباتك منزّهاً عن التشبيه، ونفيُك منزّهاً عن التعطيل، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو معطِّل، ومن شبّهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثِّل، ومن قال: استواء ليس كمثله شيءٌ فهو الموحِّد المنزّه.

وهكذا الكلام في السمع والبصر والحياة والإرادة والقدرة واليد والوجه و الرضى والغضب والنزول والضحك، وسائر ما وصف الله به نفسه))(3).

3 ـ وقال الشيخ العلا ّمة عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله-: ((سئل الإمام مالك -رحمه الله- وغيره من السلف عن قوله تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى : كيف الاستواء؟، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فبيّن أنَ الاستواء معلوم، وأنّ كيفية ذلك مجهول، وهكذا يُقال في كلّ ما وصف الله به نفسه))(4).

(1) مجموع الفتاوى (4/4).
(2) سورة طه، الآية: (46).
(3) مدارج السالكين (86/2).
(4) طريق الوصول إلى العلم المأمول (ص:8).

4- وقال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطى: ((واعلموا أنّ آيات الصفات كثير من الناس يُطلق عليها اسم المتشابه وهذا من جهة غلطٌ، ومن جهة قد يسوغ كما يثبته الإمام مالك بن أنس، أما المعانى فهى معروفة عند العرب كما قال الإمام مالك بن أنس -رحمه الله-: ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول ، والسؤال عنه بدعة))، كذلك يقال فى النزول: النزول غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة، واطّرده فى جميع الصفات؛ لأنّ هذه الصفات معروفة عند العرب، إلا ّ أنّ ما وصف به خالق السموات والأرض منها أكمل وأجلّ وأعظم من أن يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، كما أنّ ذات الخالق -جلّ وعلا- حق والمخلوقون لهم ذوات، وذات الخالق -جلّ وعلا- أكمل وأنزه وأجلّ من أن تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين))(1).

وللبحث صلة تأتى فى العدد القادم إن شاء الله تعالى وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(1) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص:21).

فهرس الموضوعـات